

أشهر رواة الحديث

من

الصحابة والتابعين

وتابعي التابعين

أبو هريرة - رضى الله عنه -

هو عبد شمس بن عامر بن عدنان بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث ابن مالك بن نضر بن الأزد، وهو دوسى من دوس فى اليمن. وقد سماه النبى ﷺ عبد الرحمن. لأنه لم يكن يترك أسماء الجاهلية مستمرة فى الإسلام مثل: عبد شمس وعبد مناف وعبد العزى وغيرها.

وهو ذكركم الصحابى الجليل الذى أسلم عام خيبر وشهداها مع رسول الله ﷺ وبعد عودته من خيبر لزم صفة مسجده ﷺ مع صفوة الصحابة الفقراء الذين حبسوا أنفسهم على العبادة، وطلب العلم والجهاد فى سبيل الله ابتغاء فضله ورضوانه ونصرة لله ورسوله. وقد لزم النبى ﷺ ليتعلم منه.

سبب كنيته بأبى هريرة:

قد كنى بأبى هريرة لأن رسول الله ﷺ رآه يحمل هرة فى كفه ويسير بها فى النهار فقال له أنت أبو هريرة ، ولقد اشتهر ﷺ فى الإسلام بهذه الكنية ولم يعرف باسمه.

نشأته وكيفية إسلامه:

هو من قبيلة تدعى دوس باليمن تعبد الأوثان، ولقد هدى الله أمه إلى الإسلام، ثم أسلم أبو هريرة بعدها، فهاجر إلى النبى ﷺ وهو شاب فى السابعة والعشرين من عمره وأعلن إسلامه وصدق فى إيمانه، ولقد هاجر فقيرا لا مال له ولا متاع ولا مأوى، فأواه رسول الله ﷺ فى الصفة.. ولازم الرسول ﷺ وكان لا يؤثر على مجلسه شيئا فلم يشغله طلب المال عنه ﷺ فتعلم الكثير من رسول الله ﷺ وسمع الكثير مما لم يسمعه الصحابة - رضى الله عنهم - لشغل بعضهم بالصفق فى الأسواق وبالزراعة وبالأهل والأولاد والأموال.

ويقال إن الرسول ﷺ دعا له بالحفظ ، فحفظ ما لا يحفظون، فقد قال يوما لرسول الله ﷺ: يا رسول الله إني أسمع منك حديثا كثيرا أنساه، قال: "أبسط رءاءك فبسطته فغرف بيديه، ثم قال ضمه فضمته فما نسيت شيئا بعده" (١).

(١) البخارى ج ١ ص ٢٤ مسلم ج ١٠ ص ٥١.

وتمتع أبو هريرة بعد ذلك بذاكرة نادرة بين الناس. فكان سريع الحفظ ، يختزن ما يسمع ثم يرويه بدقة متناهية دون إغفال أدنى الفواصل أو الكلمات.

وتروى قصص كثيرة عن قوة الذاكرة عند أبي هريرة، وأكثرها شهرة ما حصل له أمام مروان بن الحكم وكان يومها واليا على المدينة المنورة، فقد استدعى مروان بن الحكم أبا هريرة بعد أن اجلس كاتبه خلف مقعده فى مكان لا يراه أحد. وطلب إليه أن يدون على ورقة كل ما يدور من حديث بينه وبين أبي هريرة.

وبدأ مروان يحدث ويسأل، وأبو هريرة يجيبه ويحدثه. والكاتب يدون ما يدور من حديث.

حتى إذا انتهى مروان من الحديث أمر كاتبه أن يظهر، ثم طلب إلى أبي هريرة أن يعيد الحديث الذى دار بينهما.

فجعل أبو هريرة يسترجع من ذاكرته كل الحديث الذى تبادلاه ويرويه بدقة متناهية، وكاتب مروان يتبعه على الورقة. فما قدم حرفاً ولا أغفل (١) كلمة.

ويعد أبو هريرة رضي الله عنه من أكثر الصحابة رواية للحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فله خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعون حديثاً، فى البخارى منها أربعمائة وستة وأربعون، وقد أخذ عنه ما يزيد على ثمانمائة ما بين صحابى وتابعى وخاصة سعيد بن المسيب صهره والأعرج موله.

وقد كان كذلك مع قصر عهده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه ترك كل شيء فى سبيل أخذ الحديث عنه صلى الله عليه وسلم، فحضر ما لا يحضره غيره وسمع فيما لا يسمعون ، كما أنه صلى الله عليه وسلم قد دعا له بالحفظ فاستجيب دعوته، وكان أحفظ الصحابة للحديث ، كما أنه عاش فترة طويلة بعد وفاته صلى الله عليه وسلم واحتاج الناس فيها إلى علمه وفتواه لموت كثير من الصحابة ولتفرق بعضهم فى الأمصار، ولقد عاش حتى سنة ثمانى وخمسين من الهجرة، ولولا آيتان فى كتاب الله ما حدث بحديث واحد ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ وَالْمُذَكَّرَ مِنْ بَيْنِكُمْ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴾ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿ [البقرة: ١٥٩ - ١٦٠] .

(١) أغفل : نسى .

وكان ﷺ أول من دون الحديث، فقد أملى صحيفته الصحيحة على تلميذه همام التابعى وفيها ما يقرب من مائة وأربعين حديثاً.. وقد استعمله عمر ﷺ على البحرين، ثم عزله، ثم أراده على العمل ثانية فأبى ليتفرغ للعبادة والتعليم.. ولقد أعزه الله بالإسلام وأغناه، وكان صواماً، قواماً، شديد التواضع، وكان ناصحاً لأصحابه، وقد قال يوماً: ألا أدلكم على غنيمة باردة قالوا ماذا يا أبا هريرة قال: "الصوم فى الشتاء. وذلك لقصر النهار وضعف الحرارة فيه". وكان ﷺ صحابى كريم برىء كل البراءة من حقد الحاقدين الذى دفعهم إلى طعنه بما يعد محمداً له ومكرمة.

رحم الله أبو هريرة الذى توفى عن عمر ثمانية وسبعين عاماً فى العام التاسع والخمسين للهجرة فى بيته بالعقيق وحمل إلى المدينة المنورة ودفن فى البقيع، وصلى عليه الوليد بن عتبة بن أبى سفيان، وكان أميراً على المدينة لعمه معاوية بن أبى سفيان.

رحمه الله فقد كان أبو هريرة شخصية فذة من شخصيات التاريخ الإسلامى، فقد امتاز بذكاء نادر، وذاكرة عجيبة، وثقة بالنفس، بجانب خفة الروح ونعومة المعشر ولطف المحادثة، فكان دوماً يحيط مجلسه جواً من الأُنس واللفظ وراحة النفس.

كما أنه امتاز بشجاعة أدبية كبيرة وجرأة قوية فى قول الحق والصواب، فقد عاش حياته تقياً مؤمناً.. يكثر الحديث ويكثر العبادة ويكثر قيام الليل. رحمه الله رحمة واسعة وأدخله فسيح جناته.

* * *

عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه -

هو أحد المبشرين بالجنة.. ولد بعد الفيل بعشر سنين وأسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم، وكان أحد الثمانية الذين سبقوا في الإسلام وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر الصديق ﷺ.

وكان من المهاجرين الأولين، هاجر الهجرتين إلى الحبشة وإلى المدينة، حيث أخی رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع.

وكان عبد الرحمن عفيفا كريما، هاجر وترك ماله وأبى أن يكون عبئا على غيره ورفض أن يأخذ من الناس ما قل أو أكثر، وسأل عن السوق فباع واشترى وبارك الله له حتى كان عظيم التجارة، كثير المال، ذا حظ فيها وقد نالته دعوة الرسول الله ﷺ بالبركة له فقال: "لقد رأيتني ولو رفعت حجرا رجوت أن أصيب تحته ذهباً أو فضة".

ولقد كان عظيم النفقة بماله في سبيل الله فقد تصدق على عهد رسول الله ﷺ بنصف ماله أربعة آلاف دينار، ثم تصدق بأربعين ألفاً، ثم تصدق بأربعين ألف دينار ثم حصل على خمسمائة فرس في سبيل الله.

ولقد كان يحسن بماله كما أحسن الله إليه وكان يجمع ماله من حلال وينفقه فيما يرضى الله ومع ذلك كان يخشى الله تعالى، فقد روى أنه أتى بطعام وكان صائماً فقال: "قتل مصعب بن عمير وهو خير منى فكفن في بردته إن غطى رأسه بدت رجلاه وإن غطى رجلاه بدت رأسه"، قال الراوى وأراه قال: "قتل حمزة وهو خير منى ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط - أعطينا وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام"^(١).

وقد شهد عبد الرحمن المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وقد جرح يوم أحد واحداً وعشرين جرحاً، وكان بعضها في رجله فكان يعرج منها، وسقطت ثناياه فكان أهنم، وقد بعثه رسول الله ﷺ إلى دومة الجندل وعمه بيده وأسدل العمامة بين كتفيه ففتح الله عليه.

(١) البخارى.

وكان أحد العشرة المبشرين بالجنة وهم أبو بكر وعمر وعلي وعثمان والزبير وطلحة وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبد الرحمن ابن عوف.

وتوفي الرسول ﷺ وهو راض عنه، وقال فيه: "عبد الرحمن بن عوف أمين في السماء أمين في الأرض"، وقد صلى رسول الله ﷺ خلفه في أحد الأسفار فقد كان ﷺ في سفر فتخلف وتخلف معه المغيرة بن شعبة وحين انتهيا إلى القوم وقد قاموا في الصلاة يصلى بهم عبد الرحمن بن عوف وقد ركع بهم ركعة فلما أحس بالنبي ﷺ ذهب يتأخر فأوماً إليه فصلى بهم فلما سلم قام النبي ﷺ وقام المغيرة فركعا الركعة التي سبقتهما^(١).

وقد جعله عمر ﷺ من أهل الشورى الذين يختارون خليفة المسلمين من بعده لأن الرسول ﷺ توفي وهو عنه راض. ولما توفي عمر قال عبد الرحمن لأهل الشورى فمن يخرج منها ويختار للمسلمين فلم يجيبوه إلى ذلك فأجاب هو فوافقوه وأخذ المواثيق عليهم فاختر عثمان وبإيعه، وهذا إن دل فإنما يدل على ذكائه وحرصه على مصلحة المسلمين وعدم رغبته في الدنيا.

وقد كان من حفاظ الحديث وروى عنه ابن عباس وابن عمر وجابر وأنس وجبير بن مطعم، وروى عنه أبناؤه إبراهيم وحמיד وأبو سلمة ومصعب، وروى عنه ابن أخته وغيرهم.

وقد توفي سنة إحدى وثلاثين بالمدينة عن خمس وسبعين سنة وأوصى بخمسين ألف دينار في سبيل الله لمن بقي من الصحابة، فمن شهد بدرًا لكل رجل أربعمئة فأخذوها، وأوصى بألف فرس في سبيل الله، وقد ترك مالا عظيما من ذهب، وترك ألف بعير ومائة فرس وثلاثة آلاف شاة. ولما مات قال علي ﷺ: اذهب يا ابن عوف فقد أدركت صلوها وسبقت رنقها^(٢).

* * *

(٢) أسد الغابة ج ٣ ص ٤٨٠ .

(١) مسلم ج ٣ ص ١٧٢ .

أبو ذر الغفاري - رضی الله عنه -

هو جندب بن جنادة بن قيس بن عمرو بن مليل بن صعير بن حرام بن غفار. من قبيلة غفار وكنيته: أبو ذر الغفاري.

يعتبر أبو ذر، شخصية فريدة^(١) من شخصيات شبه الجزيرة العربية. قل أن يوجد له شبيهه في جيله والأجيال التي تلته.

فهو من كبار الصحابة وفضلائهم، قال عنه ابن حجر: الزاهد المشهور الصادق اللهجة، أسلم قديماً ثم انصرف إلى أهله في اليمن حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، فهاجر أبو ذر إليه، وذلك بعد بدر وأحد والخندق.

وكان أبو ذر لا يعبد الأصنام في الجاهلية، ويقول لا إله إلا الله، حتى إذا سمع بالنبي ﷺ، أسرع إليه وأعلن إسلامه، وعاش حياته كلها ملتزماً بقول رسول الله ﷺ له: "اسمع وأطع ولو لعبد حبشي".

واختلف مرة مع الخليفة عثمان بن عفان، وارتفعت أصواتهما، ثم انصرف مبتسماً، فقال له الناس: مالك وأمير المؤمنين؟ قال: سامع مطيع، ولو أمرني أن أتى صنعاء أو عدن ثم استطعت أن أفعل لفعلت، فأمره عثمان بترك المدينة إلى الربذة على طريق مكة.^(٢)

وربما أكثر النبي ﷺ من تنبيه أبي ذر إلى السمع والطاعة للسلطان، لما لاحظ البناء النفسي له، وهو بناء قلق متمرد، فكان ﷺ يروض نفسيته، ويحاول أن يخلصها من روح التمرد، وقد التزم أبو ذر بذلك حتى آخر حياته.

وكان رسول الله ﷺ محباً له، معجباً به، قال فيه يوماً: "ما أقلت الغبراء، ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق من أبي ذر". وفكر أبو ذر مرة في الإمارة، فقال: يا رسول الله ألا تستعلمني؟ قال أبو ذر: فضرب رسول الله ﷺ على منكبي، ثم قال: يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها.^(٣)

لم يكن رسول الله ﷺ يقصد بكلمة (ضعيف) أنه ضعيف البنية، لأن أبا ذر كان

(٣) فتوح مصر ٢٨٦.

(٢) الطبقات ٤/٢٢٧.

(١) فريدة: قليلة ونادرة.

طويلاً جسيماً، وإنما قصد بالضعف - فيما نحسب عدم درايته بفنون السياسة، ونظم الحكم والإدارة.

وقد شارك أبو ذر في فتح مصر، واختط بها، وكانت داره بزقاق القناديل، قرب دار عمرو بن العاص، وسموها دار العمد وعاش في الفسطاط حتى رأى مشهداً، فتذكر قولة رسول الله ﷺ، ثم تركها إلى الشام.

وعاش أبو ذر في الشام حتى اختلف مع واليها معاوية بن أبي سفيان، فخرج إلى المدينة ومنها إلى الربذة^(١)، وعاش فيها عيشة الكفاف حتى كان شهر ذي الحجة من عام ٣٢ للهجرة، وحضره الموت، وليس معه إلا امرأته و غلام.

ووصف ابن سعد هذا المشهد، فقال: ورأى امرأته تبكي، فقال: ما يبكيك؟ قالت: أبكى أنه لا يد لي بتغيبك، وليس عندي ثوب يسعك كفنًا. فقال: اغسلاني وكفناني وضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمر بكم فقولوا: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه.

فلما مات فعلا ذلك به، ثم وضعاه على قارعة الطريق، وأقبل عبد الله ابن مسعود في رهط من أهل العراق عماراً، فلم يرعهم إلا الجنازة على ظهر الطريق قد كادت الإبل تطوها، فقام إليه الغلام، فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه. فاستهل عبد الله يبكي، ويقول: صدق رسول الله ﷺ قال: تمشي وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك. ثم نزل هو وأصحابه وواروه.^(٢) وزاد ابن حجر: ولما صلى عليه عبد الله بن مسعود، قدم المدينة، فمات بعده بقليل.^(٣)

وقال الذهبي: ترك أبو ذر بنتاً له ضمها عثمان لعِياله.^(٤)

روى أبو ذر أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ بلغت عدتها في البخاري ومسلم وحدهما ٢٨١ حديثاً.

* * *

(١) من ضواحي المدينة.

(٢) الإصباة ١٣٠/٧.

(٣) الطبقات ٤/٢٣٥.

(٤) سير أعلام النبلاء ٢/٩٣.

عبادة بن الصامت - رضى الله عنه -

هو عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن قوئل بن غنم ابن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الأنصارى. كنى بأبى الوليد.

ولد قبل الهجرة بحوالى ٣٨ عاماً، كان من سادات قومه، ومن أطولهم^(١)، شهد العقبتين، اختاره رسول الله ﷺ ضمن الاثني عشر نقيباً ليكونوا رؤساء على قومهم، شهد مع رسول الله ﷺ جميع المشاهد.

وكان ممن جمع القرآن الكريم^(٢) حفظاً على عهد رسول الله ﷺ، قال عنه قتادة: كان عبادة بديراً عقيباً أحد النقباء، وكان قد بايع رسول الله ﷺ على ألا يخاف في الله لومة لائم.

وهو ذلك الفارس الذى خبر فنون القتال، وأجاد استعمال السلاح، ووقف المواقف الثابتة دفاعاً عن كل عقيدة أو فكرة آمن بها.

وهو ذلك المؤمن العالم الذى اعتنق عقيدة الإسلام وأمن بالرسالة السماوية التى بشر بها محمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام-، فأخلص لها وحفظها وفهمها وتعمق فى معانيها حتى أصبح فقيها عالماً متعبداً.

وهو أيضاً ذلك الإنسان الذى عرف القراءة والكتابة فى عصر ندر^(٣) فيه المتعلمون. وأجاد إضافة إلى لغته الأم، معرفة لغة اليهود. فكان يمضى معظم وقته يقرأ فى المخطوطات التى كانت تجلب إليه من بلاد الشام أو غيرها.

وكان ناعم الحديث، لطيف المعشر، جميل الصوت، يرثل القرآن الكريم بنغمة حنونة خاشعة تجعل المستمع إليه ينصت ويهدأ ويخضع لله عز وجل.

وقد قال عبادة عن نفسه: إني من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ على ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق.

(١) جاء التراتيب الإدارية: أدرك الإسلام عشرة، طول كل رجل منهم عشرة أشبار (أكثر من مترين): عبادة بن الصامت، وسعد بن معاذ، وقيس بن سعد بن معاذ، وجريز بن عبد الله البجلي، وعدى بن حاتم الطائى، وعمرو بن معدى كرب الزبيدى، والأشعث بن قيس، ولبيد بن ربيعة، وعامر بن الطفيل، وأبو زيد الطائى. (٣٩١/٢).

(٢) جمع القرآن خمسة من الأنصار هم: معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبى بن كعب، وأبو أيوب، وأبو الدرداء.

(٣) ندر: وجد بقلة قليلة.

وروى عبادة عن رسول الله ﷺ أحاديث منها، قال: أوصانا رسول الله ﷺ بسبع خلال، قال: لا تشركوا بالله شيئاً، وإن قطعتم أو أحرقتم أو قتلتم، ولا تتركوا الصلاة المكتوبة متعمدين، فمن تركها متعمداً فقد خرج من الملة، ولا تركبوا المعصية، فإنها سخط الله، ولا تشربوا الخمر، فإن شربها رأس الخطايا، ولا تفروا من القتل والموت، وإن كنتم فيه، ولا تعصين والديك وإن أمراك أن تخرج من الدنيا كلها فاخرج، ولا تضع عصاك على أهلك، وأنصفهم من نفسك. (١)

ومن الأحاديث التي رواها عبادة أيضاً قوله ﷺ: ما من نفس تموت لها عند الله خير تحب أن ترجع إليكم إلا الشهيد، فإنه يحب أن يرجع فيقتل مرة أخرى.

وقال عبادة أيضاً: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أى العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله، وتصديق وجهاد في سبيله، قال: أريد أهون من ذلك قال: السماحة والصبر. قال: أريد أهون من ذلك. قال: لا تتهم الله فى شىء قضى لك به. (٢)

وقد خرج عبادة أول ما خرج إلى الشام، وكان يزيد بن أبى سفيان بعث إلى عمر بن الخطاب لاحتياج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن، ويفقههم فى الدين، فبعث معاذاً وعبادة وأبا الدرداء، وأقام عبادة فى فلسطين، التى تولى فيها القضاء بعد ذلك.

وخرج عام ٢١ للهجرة فى المدد الذى ذهب إلى مصر، وهو أحد أربعة اعتبر الخليفة عمر كلا منهم بمقام ألف رجل، وفى حصار بابل يون ظهر دور عبادة الرائع فى الحوار الذى دار بينه وبين المقوقس.

وكان عبادة أحد اثنين أقاما محراب جامع الفسطاط، وبعد الفتح اختط له دارين مع بقية المسلمين بجوار الجامع، وعاش فى إحداهما مدة، ثم انتقل إلى فلسطين التى توفى فى إحدى مدنها (الرملة) عام ٣٤ للهجرة عن ٧٢ عاماً.

* * *

(٢) فتوح مصر ٢٧٢.

(١) فتوح مصر ٢٧٢.

معاذ بن جبل - رضى الله عنه -

هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدى بن كعب بن عمرو بن أدى ابن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن تزويد بن جشم بن الخزرج الأنصارى. كنيته: أبو عبد الرحمن المدني.

كان معاذ رضي الله عنه صاحب ذكاء نادر ونباهة خارقة وسرعة في فهمه للأمور. وساعده على ذلك إتقانه للقراءة والكتابة في أيام عز فيها أصحاب القلم والصحائف^(١). فكون ثقافة شاملة أساسها ومرتكزها الدين الإسلامى الحنيف.

واشتهر بميله إلى الصمت والتأمل شأن العالمين المفكرين الذين يدرسون التصرفات، ويسمعون أقوال الناس ليفهموها ويدركوا غاياتها.

أحب معاذ بن جبل رضي الله عنه الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يراه. وأعلن إسلامه قبل أن يجتمع بأشرف الخلق وسيد المرسلين وقد هداه الله بنور الإيمان.

وحين اجتمع الرسول الكريم وبصحبه عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه بأعيان^(٢) المدينة ووجهائها الذين أتوا لبياعوه ويعرضوا عليه الانتقال إلى مدينتهم.

كان من بين أعضاء الوفد معاذ بن جبل الذى لم يتمالك نفسه فراح يذرف الدمع من شدة الفرح والتأثر وهو يصافح يد النبى المصطفى ويتبارك بها وعرفت تلك البيعة ببيعة العقبة الثانية.

وحين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة كان معاذ بانتظاره مع باقى المسلمين من الأنصار. ولازمه ملازمة دائمة وأخى بينه وبين عبد الله بن مسعود.

فمعاذ فى كل مجلس فيه الرسول الكريم كان يستمع إلى أقواله بكل هدوء وصمت، وينصت إلى أحاديثه بكل يقظة وانتباه، ويحرص على سماع كل عبارة ليستوعبها ويفهمها.

وقرر أن يضع مواهبه كلها فى خدمة الإسلام. فالكتابة والقراءة قلة قليلة وهو

(٢) أعيان : رؤساء وأشرف .

(١) الصحائف : المخطوطات المجموعة .

منهم. ولذلك عكف^(١) على كتابة آيات الله البينات كلما سمع النبي المصطفى يتلو منها.

ولم يكتف بكتابة ما يسمع. بل قام مع أربعة صحابيين أجلاء بجمع القرآن الكريم في حياة الرسول ﷺ وهم:

أبو أيوب الأنصاري، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو الدرداء. وبذلك قدموا خدمة عظيمة للإسلام.

ولما تبين للرسول ﷺ مدى فهم معاذ لأصول الدين، بعد أن استمع إلى بعض فتاواه قال:

"أرحم أمتي بأمتي أبو بكر وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل".

إذ إن معاذاً وصل إلى درجة عالية من العلم وفهم الدين الحنيف حتى لقد أصبح يصنف الأعمال فيضع كل عمل في موضعه الصحيح، ويفصل بين الحلال والحرام، وأضحت أقواله عاملاً مساعداً للناس على معرفة الطريق السليم والصرط المستقيم، والعمل بالحلال والبعد عن الحرام.

وشهادة النبي المصطفى به تعد أكبر شرف وفخر يحصل عليهما صحابي جليل. وزاده شرفاً وفخراً أنه كان يؤيد كل قول يرويه عن لسانه، أو كل فتوى يقولها للناس.

وقد انصرف معاذ بكل نفسه وروحه وقلبه لاكتساب العلم نهاراً، وإلى قيام جزء من الليل متعبداً قائماً.

وبسبب انصرافه إلى مجالس العلم وزهده في الدنيا وكثرة كرمه وتصدقته على الفقراء، مرت عليه ظروف قاسية وقد روى جابر بن عبد الله فقال:

"كان معاذ بن جبل من أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خلقاً، وأسمحهم كفاً، فأدان ديناً كثيراً؛ فلزمه غرماؤه^(٢) حتى تغيب عنهم أياماً في بيته، فطلب غرماؤه من رسول الله ﷺ أن يحضره، فأرسل إليه فحضر ومعه غرماؤه فقالوا:

(٢) غرماؤه : أخصامه الدائنون .

(١) عكف : لزم وواظب .

- يا رسول الله خذ لنا حقنا.

فقال الرسول - عليه الصلاة والسلام:-

- رحم الله من تصدق عليه.

فتصدق البعض، فخلصه الرسول من ماله فاققسموه بينهم فأصابهم خمسة أسباع حقوقهم. فقال لهم الرسول ﷺ ليس لكم إلا ذلك.

ثم أرسله لليمن وقال له:

" لعل الله يجبرك ويؤدى عنك دينك".

وكانت ملوك اليمن قد أرسلت رسلها إلى النبي المصطفى تعلن إسلامها وتطلب إليه أن يرسل من يعلمهم أصول الدين وفقهه. فكلف بتلك المهمة بعض الدعاة وجعل معاذ بن جبل أميراً عليهم.

وبعد أن انتهى معاذ من مهمته عاد إلى المدينة، في خلافة أبي بكر ﷺ والذي أبقاه في اليمن ليكمل مهمته ولاحظ عمر بن الخطاب ﷺ أنه أثرى. فقدم على أبي بكر ﷺ يطلب إليه مشاطرة^(١) معاذ ثروته وماله.

ولم ينتظر جواب الخليفة بل اتجه بسرعة نحو بيت معاذ وطالبه بشطر من ماله يدفع به إلى بيت مال المسلمين.

ورفض معاذ طلب عمر وناقشه رأيه لأنه طاهر الكف... نظيف اليد... لم يدخله أى مال حرام.... وهو أعلم الناس بالحلال والحرام.

وافترقا، وفي الصباح الباكر كان معاذ يسرع الخطى نحو بيت عمر حتى لكانه يركض ركضا، وعندما رآه قال له:

- لقد رأيت الليلة في منامى أنى أخوض^(٢) حومة ماء^(٣) وأخشى على نفسى الغرق، حتى جئت فخلصتني يا عمر.

وذهبا معاً إلى أبي بكر وكرر عمر موقفه وطلبه بضرورة مشاطرة بيت المال ثروة معاذ ولكن أبا بكر حسم الموقف وقال:

(٢) أخوض : أقطع سباحة .

(١) مشاطرة : مقاسمته بالنصف .

(٣) حومة ماء : بركة ماء .

- لا آخذ منك شيئاً...

عندها فرح عمر وعانق معاذاً وقال له:

- "الآن... حل وطاب".

وعاد معاذ إلى مجالس العلم يشرح أمور الدين. ويفقه الناس في العقيدة، مستعيناً بما حفظه من آيات الله سبحانه وتعالى وأحاديث رسوله ﷺ، فقد كانت تلك مهمته منذ أن كان برفقة رسول الله ﷺ.

وبلغ معاذ مكانة عالية بين المسلمين. فأحبه الجميع واحترمه كل من حادثه، وهابه كل من جالسه.

ومكث معاذ بن جبل في فلسطين التي قد أرسله الخليفة عمر إليها يقوم بواجب المعلم المؤمن الحريص على شرح أصول الدين حتى جاءه الأجل في غوربيسان.

وتوفي سنة ثمانى عشرة للهجرة وله من العمر ثمانية وثلاثون سنة.

وحزن المسلمون عليه كثيراً لمغادرته السريعة وهو في سنه المبكرة ﷺ.

* * *

أنس بن مالك - رضى الله عنه -

هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر ابن غنم بن عدى بن النجار تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة الخزرجى الأنصارى.

وكنيته: أبو حمزة. كناه بها رسول الله ﷺ لقبلة^(١) كان يجتنيها وكان طعمها فيه لذع أى حموضة. وهذا هو معنى الحمزة.

وأنس منذ طفولته كان هادئ الجلسة، رقيق الحديث، ناعم المخاطبة، توحى تصرفاته بحسن تنشئته وتربيته لأن سلوكه كان ينم دائماً عن ذوق وتهذيب.

واشتهر أنس بين شباب المدينة المنورة ببراعته فى رمى السهام. فلم يكن يجاربه أحد فى ذلك. كما أجاد ركوب الخيل وألعاب الفروسية.

نشأ أنس بن مالك فى بيت عرف الإسلام قبل غيره، وأخلص أهله لدين الله عز وجل، وسبقوا الناس بإيمانهم بمحمد بن عبد الله ﷺ نبياً ورسولاً.

وكان أنس فى السنة العاشرة من عمره عندما اصطحبته أمه إلى رسول الله ﷺ حين قدم للمدينة وقالت له:

- يا رسول الله

هذا أنس غلامك يخدمك. فادع الله له.

فقبله رسول الله ﷺ بين عينيه ودعا له قائلاً:

- اللهم أكثر ماله وولده وبارك له وأدخله الجنة".

فجاز بشرف خدمته ﷺ وملازمته فى أكثر أحواله. وسمع الكثير من حديث الرسول ﷺ.

وبقى أنس خادماً لرسول الله ﷺ لمدة عشر سنوات تعلم فيها وتفقه فى الدين.

وهو يخدم النبى المصطفى وسيد المرسلين، ولقد لقي من حسن خلقه ﷺ مالقى، ولقد أحبه الرسول ﷺ ودعا له بالبركة.

(١) بقلة: نوع من الخضار والبقول.

ولم يغيب أنس بالرغم من صغر سنه عن كل الحروب والغزوات التي خاضها رسول الله ﷺ. واستطاع أن يتعلم من المسلمين المجاهدين فنون القتال واستعمال السلاح حتى إذا تجاوز الخامسة عشرة من عمره نزل إلى ساحة الجهاد يشارك المسلمين الأبرار في قتال أهل الشرك والكفر.

وقد شهد مع رسول الله ﷺ ثمانى غزوات ولم يمنعه من بقية الغزوات إلا صغر سنه.

اكتسب أنس بن مالك، الكثير من رسول الله ﷺ. فقد ازداد علمه واتسع فقهه، وعمق فهمه لأمر الدين وحفظ الأحاديث النبوية الشريفة حتى كان من أكثر المحدثين والرواة عن رسول الله ﷺ وكان ﷺ أشبه صلاة برسول الله ﷺ.

وكان شديد الفخر لأنه خدم النبي ﷺ. فقد روى أبو داود عن أنس أنه قال:

- "بني لأرجو أن ألقى رسول الله ﷺ فأقول:

- يا رسول الله... خويدمك^(١)".

وبقى أنس في البصرة مرجعاً لكل المسلمين يسألونه في أمور الدين ويطلبون منه المزيد من الحديث عن رسول الله ﷺ.

وقد روى عن أنس كثير من الصحابة والتابعين لأنه كان من أكثر الناس رواية عن رسول الله ﷺ. حيث إنه صحبه فترة طويلة ولازمه منذ هاجر إلى أن مات ثم أخذ عن أبي بكر وعمر وعثمان وأخرج له البخاري ثمانين حديثاً، وأخرج له مسلم سبعين حديثاً، وخرجا له معاً ١٢٨ حديثاً.

استقر أنس بن مالك في البصرة. وقد كان له فيها أربعة منازل، وقد أفاض^(٢) الله عليه من رزقه الخير الكثير بفضل دعاء رسول الله ﷺ له، فكان له بستان يحمل الفاكهة في العام مرتين، وكان فيه ريحان يفوح منه ريح المسك، وعاش حتى ولد من صلبه ثمانون ذكراً وأنثيان ومات وله من ولده، وولد ولده مائة وعشرون ولداً، وكان له كل هذا ببركة دعاء الرسول ﷺ له:

(٢) أفاض : ملأ .

(١) خويدم : تصغير خادم .

- اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة .

وقد عاش ﷺ حتى جاوز المائة.

وكان في آخر أيامه يمكث مع أولاده وأحفاده يلاعبهم ويداعبهم ويرمي معهم . واشتد المرض على أنس بن مالك، وكان يحرص على الإمساك بعضاً حتى وهو في حالة المرض. ولما سئل عن سر تلك العصا قال:

- هي من عند حبيبي رسول الله ﷺ. ادفنوها معي.

وتوفى سنة ثلاث وتسعين من الهجرة، ودفن أنس بن مالك بالطرف قريبا من البصرة، وكان آخر من بقى من صحابة رسول الله ﷺ، ولقد استجاب الله لدعوة رسوله ﷺ بالبركة في المال والولد، وقد قال ﷺ وأنا أنتظر الثالثة. أى المغفرة.

* * *

عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه -

هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن سمح بن فار بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تيم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر الهذلي أبو عبد الرحمن حليف بنى زهرة.

وقد كان الناس يدعوناه: "ابن أم عبد".

كان عبد الله بن مسعود من عامة الناس في مكة. بل كان أجيراً عند سادات قريش يرعى غنمها ولا يجرؤ على مجالستهم في ناديهم.

وجاء رسول الله ﷺ برسالته السماوية المباركة إلى جميع بنى البشر. وبدأ يبشر بها في مكة المكرمة، وكان الدين الذى ينادى به خير المرسلين وسيد الخلق محمد بن عبد الله، ﷺ يدعو للمساواة بين البشر، وإزالة الظلم عن الناس، ومنع الاضطهاد الذى يتعرض له الضعفاء.

وسمع عبد الله بن مسعود بدعوة محمد بن عبد الله وهو غلام يافع. ولكن لم يهتم لذلك الأمر، وهو الأجير الفقير، الذى يعيش من رعى غنم عقبة بن أبى معيط، فالصراع بدا له بين السادة والعظام، ولا مكان له فى ذلك الصراع، فهو بعيد عنه.

ولكنه بعد أن لمس بيديه صدق الدعوة وشاهد بعينه كرامة الرسول ﷺ، استجاب للدعوة، وأشهر إسلامه، ووضع نفسه في خدمة النبي الكريم الذي رحب به برضا وسرور.

ولقد اكتسب عبد الله بن مسعود من خلال ملازمته الرسول الأعظم علماً وفقهاً وتقياً. وقال عن نفسه في ذلك:

- "أخذت من فم رسول الله ﷺ سبعين سورة لا ينازعني فيها أحد".

ولم يكن عبد الله بن مسعود من أبرع من قرأ القرآن الكريم وحسب، بل كان أيضاً من أفضه الناس لمعانيه، وأعلمهم بآياته.

ولقد شارك عبد الله بن مسعود في المواقع الحربية، وكان إلى جانب الرسول ﷺ مثل بقية الصحابة الكرام مستعداً لبذل الروح، والجهاد بالنفس في سبيل الله العليّ القدير.

ظل عبد الله بن مسعود يلازم النبي المصطفى طيلة حياته حتى سعدت روحه إلى الرفيق الأعلى.

ولقد عرف الخليفة عمر بن الخطاب ؓ قدر ابن مسعود، فعينه أميناً على بيت مال الكوفة.

وحياة عبد الله بن مسعود، في دار النبي الكريم جعلت منه رجل علم وتقى وورع وازداد بفضل تلك الصلة المباركة علماً وفقهاً فكان فقيه الأمة وعالم الدين وراوي الحديث الشريف وكان إجلاله لسيد الخلق وتوقيره له ﷺ، بلغا حداً جعلاه يرتجف من الرهبة والاحترام عند ذكر أي حديث شريف عنه، خشية تحويره.

وبدأت شمعة حياة عبد الله بن مسعود تذوب وتوشك أن تتطفئ. وانصرف إلى العبادة والتأمل وهو يردد: "خير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، وشر العمى عمى القلب، وأعظم الخطايا الكذب، وشر المكاسب الربا، وشر المأكّل اليتيم، ومن يعف الله عنه، ومن يغفر الله له".

هذا هو دستور عبد الله بن مسعود في حياته.

فبعد الله بن مسعود لم يكن من المتمسكين بزيف الدنيا وزخرفها. فهي بنظره زائلة، بل كان ينشد رضا رب العالمين تبارك وتعالى.

ومات عبد الله بن مسعود عن بضع وستين سنة، ودفن في البقيع، في المدينة المنورة مقر شهداء أحد الأبرار. وصلى عليه ليلاً الصحابي الجليل الزبير بن العوام.

رحم الله عبد الله بن مسعود ورضى عنه فهو أول قارئ للقرآن، وهو من تمنى أن يباركه الرسول بدفنه كما باركه بتعليمه وملازمته.

* * *

عبد الله بن الزبير - رضى الله عنه -

هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب ابن مرة القرشي الأسدي.

وعبد الله بن الزبير هو أول مولود للمهاجرين في المدينة المنورة.. حيث هلك المسلمون في كل أنحاء المدينة ورقصوا استبشاراً بمولده، والسبب في ذلك أنه بعد الهجرة أشيع أن اليهود سحروا للمسلمين فلن يولد لهم مولود في المدينة المنورة.. وبالفعل طال الأمر والمسلمون يترقبون أن تلد أي من المسلمات حتى استبد بهم القلق إلى أن وضعت السيدة أسماء بنت أبي بكر مولودها الذي كان سبباً في فرحة وبهجة المسلمين.

وكنيته: أبو بكر.

وله كنية أخرى: أبو خبيب على اسم أكبر أولاده.

كان عبد الله عابداً قانتاً يصلى النهار ويقوم الليل، وأيضاً شجاعاً صاحب قلب كبير، لم يداخل الخوف نفسه، ولم يدن^(١) الفرع من فؤاده.

وهو فصيح متعلم. أجاد لغة العرب، فكان خطيباً بارعاً. وأتقن لغات الأمم، فتكلم الفارسية والحبشية والرومية والعبرية وغيرها من لغات ذلك العصر.

وعبد الله بن الزبير صاحب رأى مستقيم وموقف حازم لا يقبل اللف والدوران ولا الخداع والمداهنة.

(١) يدن : يقترب .

وتربى عبد الله فى بيت عريق نبيل، فتعلم فنون القتال، وأجاد استعمال كلالأسلحة. وبرع براعة فائقة فى ركوب الخيل.

لقد جمع عبد الله بن الزبير كرم الأصل من كل الجهات، فأمه السيدة أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنها-، والملقبة "بذات النطاقين".

وجدته لأبيه السيدة صفية بنت عبد المطلب عمه رسول الله ﷺ.

والسيدة خديجة أم المؤمنين - رضى الله عنها-، عمه أبىه الزبير بن العوام.

ووالده الزبير بن العوام عدل رسول الله ﷺ وأحد المبشرين بالجنة.

والسيدة عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها- خالته، وقد روى عنها الكثير من الأحاديث عن رسول الله هو وأخوه عروة بن الزبير.

وخليفة رسول الله ﷺ على المسلمين وصاحبه أبو بكر الصديق ﷺ جده لأمه.

فجمع عبد الله بن الزبير بذلك مجد القرابة وشرف الانتساب وكرامة صلة الرحم من كل الجهات.

منذ طفولته تمتع بجرأة نادرة ومواقف ثابتة لا يجاريه فيها أحد.

فقد نشأ عبد الله بن الزبير نشأة مسلمة خالصة. فقد دخل اليقين قلبه، وعمرت نفسه بالإيمان بثقة غير محدودة.

تأثر عبد الله بن الزبير بالأجواء البيتية التى تربى فيها، والصلوات الاجتماعية التى احتك بها.

فاكتسب من كل ذلك إيماناً خالصاً جعل منه ذلك العابد الزاهد الذى صفت روحه وطهر قلبه ونقت نفسه.

كان زاهداً بلغ من زهده أنه لبس ثوبه أربعين سنة لم يخلعه.

وعاش عبد الله بن الزبير حياته كلها والاستقامة تغلب على كل عمل من أعماله وكل قرار من قراراته.

ومواقفه التاريخية العظيمة تشهد له باستقامته المطلقة وخاصة فى فتح إفريقية حين طالت المعركة وتكبد المسلمون فيها خسائر جسيمة فى الأرواح،

وظل عبد الله بن الزبير يقاتل بجسارة إلى أن لمح منصبه نصبت في طرف السهل بجانب جيش البربر ينطلق منها الجنود بشجاعة وإقدام، فأدرك أنه لا بد من مهاجمة هذا المكان، واختار من بين جنده ثلاثين رجلاً يتصفون بالشجاعة، وسار على رأسهم باتجاه المنصة وتظاهر وكأنه يحمل رسالة لملكهم فتركوه يمضى في طريقه وخلفه جنده، وما أن وصل للمنصة حتى اقترب منه فامتشق سيفه فذعر الملك وترك المنصة وهرب وتبعه الزبير حتى أدركه وقتله. وعاد نحو صفوف المسلمين وهو يكبر، والمسلمون يكبرون بعده وما أن شاهد البربر هذا حتى تشتتت صفوفهم وانهزموا وحقق المسلمون نصراً رائعاً، وغنموا غنائم كثيرة لا تعد ولا تحصى.

ومن مواقفه التاريخية العظيمة التي تتم عن تمسكه بمبادئه إنه تصدى للخليفة عبد الملك بن مروان ولم يقر له بالخلافة مما جعل الحجاج بن يوسف الثقفي يقوم بمحاصرة مكة ليقضى عليه ومن معه وحين اشتد الكرب في مكة المكرمة مسقط رأس رسول الله ﷺ، وأخذ الناس يتخلون عن ابن الزبير، ويلتحقون بجيش الشام نجاة بأنفسهم وعيالهم، حينها شعر ابن الزبير أنه سيبقى وحيداً في ساحة القتال. واستطاع الحجاج أن يضيق الحصار شيئاً فشيئاً حتى انحصر عبد الله ومن معه في الحرم الشريف.

ومع إنه حوَّصر ومن معه بالحرم وبالرغم من كبر سنه فقد ظل يقاتل بكل شدة وضراوة وهو في السبعين من عمره. وبينما هو في ساحة القتال أتاه حجر من ناحية "الصفاء" فأصابه بين عينيه فنكس رأسه وسقط على أرض الحرم الشريف مضرجا بدمائه، وأبى الحجاج بن يوسف الثقفي إلا أن يصلبه فرفعه على خشبة مصلوباً.

رحم الله عبد الله بن الزبير.. البطل الجريء.. والمؤمن الصابر فحين سئل عبد الله بن عباس عنه، ولم يكن على اتفاق معه، قال:

" كان قارئاً لكتاب الله. متبعاً لسنة رسول الله، فانتا لله، صائماً في الهواجر من مخافة الله. ابن حوارى رسول الله. وأمه بنت الصديق. وخالته عائشة حبيبة الله وزوجة رسول الله ﷺ. فلا يجهل حقه إلا من أعماه الله."

عروة بن الزبير - رضى الله عنه -

ولد عروة بن الزبير لسنة واحدة بقيت من خلافة الفاروق رضوان الله عليه في بيت من أعز بيوت المسلمين شأنًا، وأرفعها مقامًا.

فأبوه هو الزبير بن العوام من صحابة رسول الله ﷺ، وأول من سل سيفاً في الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة.

وأمه، هي أسماء بنت أبي بكر المنقبة بذات النطاقين^(١).

وجده لأمه، هو أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ، وصاحبه في الغار.

وجدته لأبيه، هي صفية بنت عبد المطلب^(٢) عمة رسول الله ﷺ.

وخالته، هي أم المؤمنين عائشة عليها رضوان الله.. فقد نزل إلى قبرها حين دفنت بنفسه، وسوى عليها لحدّها بيديه.

وأخوه عبد الله بن الزبير أول مولود رزق به المسلمون في الهجرة.

أليس بعد هذا الحساب حساباً.. غير شرف الإيمان وعزة الإسلام؟

عكف عروة على طلب العلم وانقطع له، واغتتم البقية الباقية من صحابة رسول الله ﷺ... فأخذ يؤم^(٣) بيوتهم، ويصلى خلفهم، ويتبع مجالسهم، حتى روى عن علي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، وزيد بن ثابت، وأبي أيوب الأنصاري.. وأسامة بن زيد، وسعيد بن زيد، وأبي هريرة، وعبد الله بن عباس، والنعمان ابن بشير.

وأخذ كثيراً عن خالته عائشة أم المؤمنين، حتى غدا أحد فقهاء المدينة السبعة الذين يفرع^(٤) إليهم المسلمون في دينهم. ويستعين بهم الولاة الصالحون على ما استرعاهم الله جل وعز من أمر العباد والبلاد.

(١) ذات النطاقين: لقبته بذلك لأنها شقت نطاقها يوم الهجرة شقين لتربط بأحدهما مزود رسول الله ﷺ وبالثاني سقاء... انظرها في كتاب 'صور من حياة الصحابييات' د. عبد الرحمن رأفت الباشا.

(٢) صفية بنت عبد المطلب: انظرها في كتاب 'صور من حياة الصحابييات' د. عبد الرحمن رأفت الباشا.

(٣) يؤم بيوتهم: يأتي بيوتهم.

(٤) يفرع إليه المسلمون: يلجأون إليه، ويلوذون به.

وقد جمع عروة بن الزبير العلم إلى العمل، فقد كان صواماً في الهواجر^(١)..
قواماً في العتَمات، رطب اللسان دائماً بذكر الله تعالى.

وكان إلى ذلك خديناً^(٢) لكتاب الله جل وعز، عاكفاً على تلاوته.. فكان يقرأ
ربع القرآن كل نهار نظراً في المصحف.. ثم يقوم به الليل تلاوة عن ظهر قلب.
ولقد كان عروة بن الزبير يجد في الصلاة راحة نفسه، وقرّة عينه، وجنته
على الأرض، فيحسنها كل الإحسان، وينقن شعائرها أتم الإتقان، وبطيئها
غاية الطول.

وقد كان عروة بن الزبير رضوان الله عليه سخي اليد سمحاً جواداً...

ومما أثر عن جوده أنه كان له بستان من أعظم بستان المدينة... عذب المياه،
ظليل الأشجار، باسق النخيل.. وكان يسور^(٣) بستانه طوال العام، لحماية أشجاره
من أذى الماشية وعبث الصبية، حتى إذا أن أوان الرطب^(٤) وأينعت الثمار
وطابت، واشتهتها النفوس... كسر حائط بستانه في أكثر من جهة ليجيز
للناس دخوله.

فكانوا يلمون^(٥) به ذاهبين آيبين، ويأكلون من ثمره ما لذ لهم الأكل، ويحملون
منه ما طاب لهم الحمل.

وكان كلما دخل بستانه هذا ردد قوله جل وعز:

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩].

وفي ذات سنة من خلافة الوليد بن عبد الملك^(٦) شاء الله جل وعز أن يمتحن
عروة بن الزبير امتحاناً لا يثبت له إلا نوو الأفتدة التي عمرها الإيمان
وأترعها^(٧) اليقين.

(٢) خديناً: مصاحباً.

(١) الهاجرة: شدة القيظ، والجمع هواجر.

(٤) الرطب: ثمر النخيل قبل أن يصير تمراً.

(٣) يسور بستانه: يجعل لبستانه سوراً.

(٥) يلمون به: يدخلونه.

(٦) الوليد بن عبد الملك: سادس خلفاء بني أمية وقد بلغت دولة الإسلام في عهده أوج عزها.

(٧) أترعها: ملاءها.

فلقد دعا خليفة المسلمين عروة بن الزبير لزيارته في "دمشق"، فلبى دعوته، وصحب معه أكبر بنيه... ولما قدم على الخليفة رحب بمقدمه أعظم الترحيب، وأكرم وفادته أوفى الإكرام، وبالغ في الحفاوة به.

ثم شاء الله سبحانه بأن تجرى الرياح بما لا تشتهي السفن.

ذلك أن ابن عروة دخل على إصطبل^(١) الوليد ليتفرج على جواده الصافنات^(٢)، فرمحته^(٣) دابة رمحة قاضية أودت بحياته.

ولم يكد الأب المفجوع ينفذ يديه من تراب قبر ولده، حتى أصابت إحدى قدميه "الآكلة"^(٤).

فتورمت ساقه، وجعل الورم يشتد ويمتد بسرعة مذهلة.

فاستدعى الخليفة لضيفه الأطباء من كل جهة.. وحضهم على معالجاته بأى وسيلة.

لكن الأطباء أجمعوا علي أنه لا مفر من بتر ساق عروة قبل أن يسرى الورم إلى جسده كله، ويكون سبباً في القضاء عليه..

فلم يجد بدا من الإذعان لذلك.

ولما حضر الجراح لبتتر الساق، وأحضر معه مباحضه^(٥) لشق اللحم، ومناشير لشر العظم، قال الطبيب لعروة:

أرى أن نسقيك جرعة من مسكر لكي لا تشعر بآلام البتر المبرحة.

فقال: هيهات^(٦)... لا أستعين بحرام على ما أرجوه من العافية.

فقال له: إذن نسقيك المخدر، فقال: ما أحب أن أسلب عضواً من أعضائي دون أن أشعر بألمه، وأحتسب^(٧) ذلك عند الله.

(١) الإصطبل: مربوط الخيل ونحوها من الدواب.

(٢) الجياد الصافنات: الجياد التي تقف على ثلاث وترفع الرابعة، وهي صفة الجياد الكريمة. (٣) رمحته: رفسته.

(٤) الآكلة: داء يصيب العضو فيأكل منه. (٥) المباحض: آلة يشق بها الطبيب الجلد.

(٦) هيهات: اسم فعل بمعنى بعد (أى لا أفعل). (٧) احتسب الشيء: نوى به وجه الله.

ولما هم الجراح بقطع الساق، تقدم نحو عروة طائفة من الرجال فقال: ما هؤلاء؟!... فقبل له: لقد جىء بهم ليمسكوك، فلربما اشتد عليك الألم، فجدبت قدمك جذبة أضرت بك.

فقال: ردوهم... لا حاجة لى بهم، وإنى لأرجو أن أكفيكم^(١) ذلك بالذكر والتسبيح...

ثم أقبل عليه الطبيب، فقطع اللحم بالمبضع... ولما بلغ العظم، وضع عليه المنشار وطفق ينشره به، وعروة يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر.

وما فتئ الجراح ينشر، وعروة يهلل ويكبر حتى بترت الساق بترأ.

ثم أغلى^(٢) الزيت فى مغارف الحديد، وغمست به ساق عروة لإيقاف تدفق الدماء، وحسم الجراح، فأغمى عليه إغماءة طويلة حالت دونه ودون أن يقرأ حصته من كتاب الله فى ذلك اليوم...

وكانت المرة الوحيدة التى فاتته فيها ذلك الخير منذ صدر شبابه.

ولما صحا عروة، دعا بقدمه المبتورة، فناولوه إياها.. فجعل يقلبها بيده وهو يقول: أما الذى حملنى عليك فى عتمة الليل إلى المساجد، إنه ليعلم أننى ما مشيت بك إلى حرام قط...

وقد شق على الوليد بن عبد الملك ما نزل بضيفه الكبير من النوازل...

فقد احتسب ابنه، وفقد ساقه فى أيام معدودات، فجعل يحتال لتعزيته وتصبيره على ما أصابه.

ظل عروة بن الزبير للمسلمين منارة هدى، ودليل فلاح، وداعية خير طوال حياته...

ولقد اهتم أكثر ما اهتم بتربية أولاده خاصة، وسائر أبناء المسلمين عامة، فلم يترك فرصة لتوجيههم إلا اغتمها، ولم يدع سانحة^(٣) لنصحهم إلا أفاد منها.

(٢) أغلى الزيت: حمى الزيت على النار.

(١) أكفيكم ذلك: أغنيكم عن ذلك.

(٣) لم يدع سانحة: لم يترك فرصة.

من ذلك أنه دأب على حض^(١) بنيه على طلب العلم، إذ كان يقول لهم:
يا بني تعلموا العلم، وابدلوا له حقه.. فإنكم إن تكونوا صغار قوم، فعسى أن
يجعلكم الله بالعلم كبراءهم.

ثم يقول: واسوأنا^(٢)، هل في الدنيا شيء أقبح من شيخ جاهل؟!!

وكان يدعوهم إلى عد الصدقة هدية تهدي الله جل وعز، فيقول:

يا بني، لا يهدين أحدكم إلى ربه ما يستحي أن يهديه إلى عزيز قومه...

فإن الله تعالى أعز الأعراء، وأكرم الكرماء، وأحق من يختار له.

وكان يبصرهم بالناس، وينفذ بهم إلى جوهرهم فيقول:

يا بني إذا رأيتم من رجل فعلة خير رائعة فأملوا به خيراً، ولو كان في نظر

الناس رجل سوء، فإن لها عنده أخوات...

وإذا رأيتم من رجل فعلة شر فاطروه، وإن كان في نظر الناس رجل

خير، فإن لها عنده أخوات أيضاً.

واعلموا أن الحسنة تدل على أخواتها.. وأن السيئة تدل على أخواتها أيضاً.

وكان يوصيهم بلين^(٣) الجانب، وطيب الكلام، وبشر^(٤) الوجه فيقول:

يا بني، مكتوب في الحكمة، "لتكن كلمتك طيبة، وليكن وجهك طلقاً، تكن أحب

إلى الناس ممن يبذل لهم العطاء".

وبعد... فقد عاش عروة بن الزبير واحداً وسبعين عاماً مترعة^(٥) بالخير،

حافلة بالبر، مكللة بالتقى.

* * *

(١) حض بنيه: حث أولاده.

(٢) واسوأنا: أسلوب يستعمل لاستنباح الأمر.

(٣) لين الجانب: سهولة المعاشرة.

(٤) بشر الوجه: طلاقة الوجه، وبشاشته.

(٥) مترعة: مملوءة.

جابر بن عبد الله الأنصاري - رضی الله عنه -

هو جابر بن عبد الله بن عمرو الخزرجي الأنصاري... أشرق الإيمان في قلبه وهو صغير غض^(١) فأضاء كل جانب من جوانبه..

وتوثقت^(٢) صلواته بالرسول صلوات الله وسلامه عليه منذ نعومة أظفاره^(٣).

ولما وفد الرسول الأعظم ﷺ على المدينة مهاجراً، تتلمذ الصبي المؤمن على يدي نبي الهدى والرحمة، فكان من أنجب^(٤) من أخرجتهم المدرسة المحمدية للناس حفظاً لكتاب الله... وفقهاً^(٥) في دين الله... ورواية لحديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

وحسبك أن تعلم أن "مسند جابر بن عبد الله" يضم بين دفتيه ألفاً وخمسمائة وأربعين حديثاً..

حفظها التلميذ النجيب، ورواها للمسلمين عن نبيهم الأعظم ﷺ .

وأن البخاري ومسلماً أثبتا في صحيحيهما ما يزيد على مائتين من أحاديثه تلك..

وأنه ظل مصدر إشعاع وهداية للمسلمين دهرأ طويلاً، فلقد مد الله في حياته حتى أوشك أن يبلغ من العمر قرناً من الزمان.

لم يشهد جابر بن عبد الله "بدرأ" ولا "أحدأ" مع رسول الله ﷺ... لأنه كان صغيراً من جهة.. ولأن أباه كان يأمره بالبقاء مع أخواته التسع من جهة أخرى، ذلك لأنه لم يكن لهن أحد سواه يقوم على أمرهن.

حدث جابر قال:

لما كانت الليلة التي سبقت "أحدأ" دعاني أبي وقال:

إني لا أراني إلا مقتولاً مع أول من يقتل من أصحاب رسول الله ﷺ، وإني - والله - ما أدع أحدأ أعز على منك بعد رسول الله ﷺ.

وإن على دينأ، فاقض ديني... وارحم أخواتك... واستوص بهن خيراً.

(١) غض: نضر طرى. (٢) توثقت: تمكنت وتقوت. (٣) منذ نعومة أظفاره: منذ طفولته.

(٤) لنجب: أكرم وأنس وأفضل. (٥) وفقها: الفقه، الفهم والوعى بما يلقي عليه.

فلما أصبحنا كان أبي أول قتيل قتل في "أحد".

فلما دفنته أتيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله إن أبي ترك ديناً عليه.. وليس عندي ما أفيه^(١) به إلا ما يخرج ثمر نخيله، ولو عمدت إلي وفاء دينه من ذلك الثمر لما أديته في سنين.. ولا مال لأخواتي أنفق عليهن منه غير هذا.

فقام رسول الله ﷺ، ومضى معي إلى بيدر^(٢) تمرنا وقال لي: (ادع غرماء^(٣) أبيك)، فدعوتهم.

فما زال يكيل لهم منه حتى أدى^(٤) الله عن أبي دينه كله من تمر تلك السنة.

ثم إنني نظرت إلى البيدر فوجدته كما هو.. كأنه لم تنقص منه ثمرة واحدة.. ومنذ توفي والد جابر لم تفتحه غزوة واحدة مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

ولقد كانت له في كل غزوة حادثة تروى وتحفظ.

فلنترك له الكلام ليروي لنا إحدى حوادثه مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

قال جابر:

كنا يوم "الخدق" نحفر، فعرضت لنا صخرة شديدة عجزنا عن تحطيمها، فجننا إلى الرسول ﷺ وقلنا:

يا نبي الله لقد وقفت في سبيلنا صخرة صلدة، ولم تفعل معاولنا^(٥) فيها شيئاً.

فقال ﷺ: (دعوا فإنني نازل إليها).

ثم قام، وكان بطنه معصوباً بحجر من شدة الجوع، ذلك لأننا كنا أمضينا أياماً ثلاثة لم نذق خلالها طعاماً، فأخذ النبي ﷺ المعول، وضرب الصخرة فعدت كثيباً^(٦) مهيباً^(٧).

(١) أفيه: أوديه.

(٢) البيدر: الموضع الذي يكوم ويجمع فيه الثمر.

(٣) غرماء: مفرده غريم: الدائن.

(٤) أدى: قضى ما عليه ووفاه.

(٥) معاولنا: مفرده معول وهي أداة لحفر الأرض.

(٦) كثيباً: تلاً من الرمل.

(٧) مهيباً: ينهال فيتساقط ولا يتماسك.

عند ذلك ازداد أسأى على ما أصاب الرسول الأعظم ﷺ من الجوع، فاتجهت إليه وقلت: أتأذن لي يا رسول الله بالمضى إلى بيتي؟

فقال: (امض).

فلما بلغت البيت قلت لامرأتي: لقد رأيت برسول الله من مرارة الجوع ما لا يصبر عليه أحد من البشر، فهل عندك من شيء؟

قالت: عندي قليل من الشعير، وشاة صغيرة، فممت إلى الشاة فذبحتها وقطعتها، وجعلتها في القدر، وأخذت الشعير فطحنته ودفعته إلى امرأتي، فعجنته فلما وجدت أن اللحم كاد ينضج.. وأن العجين قد لان، وأوشك^(١) أن يختمر.

مضيت إلى رسول الله ﷺ، وقلت له:

طعيم^(٢) صنعناه لك يا نبي الله، فقم أنت ورجل أو رجلان معك.

فقال: (كم هو)؟. فوصفته له..

فلما علم النبي ﷺ بمقدار الطعام قال:

(يا أهل الخندق إن جابراً قد صنع لكم طعاماً فهلوا^(٣) إليه) ... ثم التفت إلي وقال: (امض إلى زوجتك وقل لها: لا تنزلي قدرك، ولا تخبزي عجينك حتى أجيء).

فمضيت إلى البيت، وقد ركبني من الهم والحياء ما لا يعلمه إلا الله. وجعلت

أقول: أيجبنا أهل الخندق على صاع من شعير... وشاة صغيرة؟!!

ثم دخلت على امرأتي وقلت: ويحك^(٤)؛ لقد افتضحت^(٥).. فرسول الله ﷺ سيأتينا بأهل الخندق أجمعين.. فقالت: هل سألك: كم طعامك؟ قلت: نعم.

فقالت: سر^(٦) عن نفسك، فالله ورسوله أعلم، فكشفت عني غماً^(٧) شديداً بمقالتها تلك.

(١) أوشك: دنا وقارب. (٢) طعيم: القليل من الطعام.

(٣) هلوا: تعالوا، وتكون لازمة ومتعدية وهي من أسماء الأفعال.

(٤) ويحك: كلمة ترحم وتوجع. (٥) افتضحت: انكشفت واشتهر حاله.

(٦) سر: ألق الهم وأزحه. (٧) غماً: حزناً.

وما هو إلا قليل حتى أقبل رسول الله ﷺ... ومعه الأنصار والمهاجرون، فقال لهم: (ادخلوا ، ولا تزحموا).

ثم قال لامرأى: (هات خابزة فلتخبز معك... واغرفى من قدرك... ولا تنزليها عن الموقد).

ثم طفق يكسر الخبز، ويجعل عليه اللحم، ويقربه إلى أصحابه.. وهم يأكلون.. حتى شبعوا جميعاً.

ثم أردف^(١) جابر قائلاً:

أقسم بالله إنهم انفضوا عن الطعام وإن قدرنا لتفور ممثلة كما هي... وإن عجبنا ليخبز كما هو.. ثم إن رسول الله ﷺ قال لامرأى: (كلى.. واهدى)... فأكلت، وجعلت تهدي سحابة^(٢) ذلك اليوم كله.

هذا ولقد ظل جابر بن عبد الله الأنصاري مصدر إشعاع وهداية للمسلمين دهرًا طويلًا، حيث مد الله في أجله حتى أوشك أن يبلغ من العمر قرنًا من الزمان.

هنيئًا لجابر بن عبد الله الأنصاري: فقد بايع الرسول الأعظم ﷺ وهو طفيل لم يبلغ الحلم.. وتلمذ على يديه منذ نعومة أظفاره.. وروى حديثه فتناقلته عنه الرواة.. وجاهد مع رسول الله ﷺ وهو شاب موفور الشباب.. وغبر قدميه في سبيل الله وهو شيخ طاعن في السن.

* * *

(٢) سحابة ذلك اليوم: طوال ذلك اليوم.

(١) أردف: تابع وأكمل

سعد بن أبي وقاص - رضى الله عنه -

سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه هو سعد بن مالك الزهري، جده أهيب بن مناف الزهري القرشي، عم السيدة آمنة أم الرسول صلى الله عليه وسلم، كان من السابقين إلى الإسلام، ولقد كان ثالث ثلاثة دخلوا في الإسلام، وقد روى عنه البخاري قوله: "لقد رأيتني وأنا ثالث الإسلام" وقيل أسلم بعد ستة رجال وقيل أربعة.

وكان ذلك على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان عمره حينئذ سبعة عشر عاماً.

وكان باراً بأمه فلما أسلم قالت له: يا سعد ما هذا الدين الذي أحدثت لتدعن دينك هذا أولاً وأكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي. فقال لا تفعلين يا أمه فإني لا أدع ديني، قال فمكثت يوماً وليلة لا تأكل فأصبحت وقد جهدت فقلت والله لو كانت لك ألف نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء، فلما رأته ذلك أكلت وشربت فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَنْ جَهْدَكَ عَلَيَّ أَنْ تَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥٠].

وكان رضي الله عنه فارس الإسلام فكان أول من أراق دماً في سبيل الله وأول من رمى بسهم في سبيل الله.

وقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يوم أحد من الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذ يدافع بنفسه ويصد عنه وأخذ يرمى بقوسه في كل جهة، وقد أعجب به رسول الله صلى الله عليه وسلم أيماً إعجاب، وكان رضي الله عنه يناوله السهام قائلاً: ارم يا سعد فذاك أبي وأمي. ودعا له فقال له "اللهم سدد رميته وأجب دعوته".

وكان رضي الله عنه يفرح به ويقول هذا خالي فليرنى امرؤ خاله "ذلك أن أم الرسول صلى الله عليه وسلم من بنى زهرة، وكذلك كان سعد رضي الله عنه .

وقد كان أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض.

وقد توجه خالد رضي الله عنه على رأس جيش المسلمين إلى أطراف العراق في عهد سيدنا أبي بكر رضي الله عنه وانتصر على الفرس وفتح الحيرة والأنبار ثم مات أبو بكر رضي الله عنه، وقد أعد الفرس جيشاً كبيراً ليثأروا لهزيمتهم، فاضطر المسلمون

على التقهقر، فأراد عمر رضي الله عنه أن يقود الجيش بنفسه فمنعه المسلمون من ذلك، فاختر سعداء، وقال هو الأسد في عربنه، وتوجه إلى الفرس فانتصر عليهم انتصارا حاسما في القادسية وفتح المدائن عاصمتهم. وبنى الكوفة وولى عليها.

ولكن بعض أهلها شكوه في كل شيء إلى سيدنا عمر رضي الله عنه حتى ذكروا أنه لا يحسن الصلاة فاستدعاه عمر رضي الله عنه وسأله عما نسبه إليه أهل الكوفة فقال رضي الله عنه: أما أنا والله فإنني كنت أصلى بهم صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحرم عنها أصلى صلاة العشاء فأركد في الأوليين وأخف في الآخرين. قال ذلك الظن بك يا أبا إسحاق، ثم أرسل معه رجلا أو رجالا إلى الكوفة فسأل عنه أهل الكوفة ولم يدع مسجدا إلا سأل عنه فما قالوا إلا خيرا حتى دخل مسجد النبي عيسى فقام رجل منهم يقال له أسامة بن قتادة فقال: أما إذا نشدتنا فإن سعدا كان لا يسير بالسريية ولا يقسم بالسوية ولا يعدل في القضية.

فقال سعد أما والله لأدعون بثلاث اللهم إن كان عبدك هذا كاذبا قام رياء وسمته فأطل عمره وأصل فقره وعرضه بالفتن، قال جابر بن سمرة رضي الله عنه: وكان بعد إذا سئل يقول شيخ كبير مفتون أصابتنى دعوة سعد. قال عبد الملك فأنا رأيت بعد قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر وإنه ليتعرض للجوارى في الطريق يغمزهن ^(١).

وكانت هذه التهم محض كذب واختلاق فهو رضي الله عنه كان القائد المغوار والفراس المقدم لا يتخلف عن سرية أبدا، وكان رضي الله عنه عادلا ولكن هؤلاء النفر أرادوا الفتنة وقد دفعهم إلى ذلك الحقد والحسد الدفين في قلوبهم، ويكفي شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم له بدخول الجنة ويكفي رضاه عنه وهو صحابي جليل، والصحابة هم خير أمة وأعدلها وأقفاها وأفقهها في الدين. ومع ثقة سيدنا عمر رضي الله عنه ببراءته فقد عزله وأدا للفتنة وقضاء على عناصر الشر والفساد.

ولما طعن عمر رضي الله عنه جعله أحد الستة الذين وكل إليهم أمر اختيار خليفة للمسلمين لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات وهو راض عنهم، وقال رضي الله عنه: "إن ولى سعد الخلافة فذلك، وإلا فإنني أوصى الخليفة من بعدي أن يستعمله فإنني لم أعزله عن

(١) البخارى ج ١ ص ٩٦.

عجز ولا خيانة، وبهذا رد له اعتباره فادعاه عثمان رضي الله عنه والياً على الكوفة والعراق تنفيذاً لوصية عمر رضي الله عنه.

ولما حضرته الوفاة دعا بخلق جبة له من صوف فقال كفونى فيها فإنى كنت لقيت المشركين فيها يوم بدر وهى على وإنما كنت أخبؤها لهذا.. وكان آخر المهاجرين موتاً توفى بالعقيق على سبعة أميال من المدينة فحمل إليها على أعناق الرجال وصلى عليه فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم.

وكان ممن صلى عليه أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وكانت وفاته سنة خمس وخمسين وهو آخر من مات من العشرة المبشرين بالجنة.

وقد ترك من الأولاد أربعا وثلاثين نصفهم من الذكور ونصفهم من الإناث.

وقد روى عنه مائتان وسبعون حديثاً، روى عن ابن عمر وابن عباس وخولة بنت حكيم، وروى عنه السائب بن يزيد وعلقمة بن قيس ومجاهد وغيرهم.

* * *

عبد الله بن عباس - رضى الله عنه -

هو عبد الله بن عباس عالم أمة محمد، وأعلمها بكتاب الله، وأفقهها بتأويله، وأقدرها على النفوذ إلى أغواره، وإدراك مراميها وأسرارها.

ولد ابن عباس قبل الهجرة بثلاث سنوات، ولما توفى الرسول صلوات الله وسلامه عليه، كان له ثلاث عشرة سنة فقط... ومع ذلك فقد حفظ للمسلمين عن نبيهم ألفاً وستمائة وستين حديثاً أثبتتها البخارى ومسلم فى صحيحيهما.

وما إن حلت عن الغلام "الهاسمى" ثمائه، ودخل سن التمييز حتى لازم رسول الله صلى الله عليه وسلم ملازمة العين لأختها.. فكان يعد له ماء وضوئه إذا هم أن يتوضأ.. ويصلى خلفه إذا وقف للصلاة.. ويكون رديفه^(١) إذا عزم على السفر.. حتى غدا له كظله يسير معه أنى سار، ويدور فى فلكه كيفما دار.

وهو فى كل ذلك يحمل بين جنبيه قلباً واعياً، وذهناً صافياً، وحافظة دونها كل آلات التسجيل التى عرفها العصر الحديث.

(١) رديف الرجل: من يركب خلفه.

هذا الصحابي الجليل ملك المجد من جميع جوانبه، فما فاتته منه شيء: فقد اجتمع له مجد الصحبة، ولو تأخر ميلاده قليلاً لما شرف بصحبة رسول الله ﷺ . ومجد القرابة، فهو ابن عم نبي الله صلوات الله وسلامه عليه. ومجد العلم، فهو حبر^(١) أمة محمد وبحر علمها الزاخر. ومجد التقى، فقد كان صواماً بالنهار قواماً بالليل، مستغفراً بالأسحار، بكاء من خشية الله حتى خدد^(٢) الدمع خديه.

حدث عن نفسه فقال: هم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بالوضوء ذات مرة، فما أسرع أن أعددت له الماء، فسر بما صنعت.. ولما هم بالصلاة أشار إلي: أن أقف بإزائه، فوقفت خلفه.. فلما انتهت الصلاة مال على وقال: (ما منعك أن تكون بإزائتي يا عبد الله!؟).

فقلت: أنت أجل في عيني وأعز من أن أوزيك يا رسول الله.

فرفع يديه إلى السماء وقال: (اللهم آتة الحكمة)^(٣).

وقد استجاب الله دعوة نبيه ﷺ فأتى الغلام الهاشمي من الحكمة ما فاق به أساطين^(٤) الحكماء.

فقد سلك الفتى عبد الله بن عباس إلى العلم كل سبيل، وبذل من أجل تحصيله كل جهد.

ظل ينهل من معين رسول الله ﷺ ما امتدت به الحياة، فلما لحق الرسول الكريم ﷺ بجوار ربه اتجه إلى البقية الباقية من علماء الصحابة وطفق يأخذ منهم ويتلقى عنهم.

ولما اكتمل لابن عباس ما طمح إليه من العلم تحول إلى معلم يعلم الناس فأصبح بيته جامعة للمسلمين...

نعم أصبح جامعة بكل ما تعنيه هذه الكلمة في عصرنا الحديث...

(١) الحبر: للعالم المتبحر في العلم.

(٢) ورد أصل هذا الخبر في البخاري، ومسلم، ومسنَد الإمام أحمد بن حنبل.

(٣) أساطين الحكماء: أكابر الحكماء والمتفردون منهم.

وكل ما بين جامعة ابن عباس وجامعاتنا من فرق، هو أن جامعات اليوم يحشد فيها عشرات الأساتذة، وأحياناً المئات.. أما جامعة ابن عباس فقد قامت على أكتاف أستاذ واحد، هو ابن عباس نفسه.

روى أحد أصحابه قال: لقد رأيت من ابن عباس مجلساً لو أن جميع قریش افتخرت به لكان لها مفخرة..

فلقد رأيت الناس اجتمعوا في الطرق المؤدية إلى بيته حتى ضاقت بهم، وسدوها في وجوه الناس، فدخلت عليه وأخبرته باحتشاد الناس على بابه، فقال: ضع لى وضوءاً^(١)... فتوضأ وجلس، وقال:

أخرج وقل لهم: من كان يريد أن يسأل عن القرآن وحروفه فليدخل.. فخرجت فقلت لهم، فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به، وزادهم مثل ما سألوا عنه وأكثر، ثم قال لهم: أفسحوا الطريق لإخوانكم، فخرجوا.

ثم قال لى: أخرج فقل: من أراد أن يسأل عن تفسير القرآن وتأويله فليدخل... فخرجت فقلت لهم، فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به، وزادهم مثل ما سألوا عنه وأكثر، ثم قال لهم: أفسحوا الطريق لإخوانكم، فخرجوا.

ثم قال لى: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن الحلال والحرام والفقهاء فليدخل... فخرجت فقلت لهم، فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله، ثم قال لهم: أفسحوا الطريق لإخوانكم، فخرجوا.

ثم قال لى: أخرج فقل: من أراد أن يسأل عن الفرائض وما أشبهها فليدخل... فخرجت فقلت لهم، فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله، ثم قال لهم: أفسحوا الطريق لإخوانكم، فخرجوا.

(١) الوضوء بفتح الواو: الماء الذى يتوضأ به.

ثم قال لى: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن العربية والشعر وغريب كلام العرب فليدخل.. فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به، وزادهم مثله.

قال راوى الخبر: فلو أن قريشاً فخرت بذلك لكان ذلك لها فخراً.

وكان ابن عباس رضي الله عنه رأى أن يوزع العلوم على الأيام حتى لا يحدث على بابه مثل ذلك الزحام..

فصار يجلس فى الأسبوع يوماً لا يذكر فيه إلا التفسير.. ويوماً لا يذكر فيه إلا الفقه.. ويوماً لا تذكر فيه إلا المغازى^(١).. ويوماً لا يذكر فيه إلا الشعر.. ويوماً لا تذكر فيه إلا أيام العرب.. وما جلس إليه عالم قط إلا خضع له.. وما سأله سائل قط إلا وجد عنده علماً.

وقد غدا ابن عباس، بفضل علمه وفقهه، مستشاراً للخلافة الراشدة على الرغم من حداثة سنه.

فكان إذا عرض لعمر بن الخطاب أمر أو واجهته معضلة^(٢) دعا جلة^(٣) الصحابة ودعا معهم عبد الله بن عباس، فإذا حضر رفع منزلته وأدنى مجلسه وقال له: لقد أعضل علينا أمر أنت له ولأمثاله.

وقد عوتب مرة فى تقديمه له وجعله مع الشيوخ، وهو مازال فتى، فقال: إنه فتى الكهول، له لسان سؤول، وقلب عقول.

على أن ابن عباس حين انصرف إلى الخاصة ليعلمهم ويفقههم، لم ينس حق العامة عليه، فكان يعقد لهم مجالس الوعظ والتذكير.

ولم يكن ابن عباس من الذين يقولون مالا يفعلون، وينهون الناس ولا ينتهون، وإنما كان صوام نهاراً، قوام ليلاً.

عاش ابن عباس إحدى وسبعين سنة ملاً فيها الدنيا علماً وفهماً وحكمة وتقى.

(١) المغازى: غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٢) المعضلة: المشكلة الصعبة.

(٣) جلة الصحابة: شيوخ الصحابة ومقدمهم.

فلما أتاه اليقين^(١) صلى عليه محمد بن الحنفية^(٢).. والبقية الباقية من صحابة رسول الله ﷺ وجلة التابعين... وفيما كانوا يوارونه تراه، سمعوا قارئاً يقرأ:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴾
[الفجر: ٢٧-٣٠].

* * *

عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما -

هو عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله ابن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى القرشى العدوى.

أسلم عبد الله مع أبيه عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما-، وهو غلام لم يبلغ الحلم^(٣).

وعلى الرغم من صغر سنه فقد وجد في الدين الجديد نوراً يهدى .. وفي الرسول ﷺ مثلاً يقتدى^(٤) به.

وقد هاجر إلى يثرب - المدينة المنورة- قبل والده ، وذلك عندما صدر أمر النبي الكريم بالهجرة من مكة إلى المدينة المنورة.

جمع عبد الله بن عمر في شخصه جمال الخلق^(٥) والخلق^(٦).

فقد كان كريم النفس، عفيف اللسان، طاهر القلب، باسط اليد بالصدقة والإحسان.

وهو إلى جانب ذلك كان مجاهداً مخلصاً لدين الله الحنيف يتمتع بقوة ورجولة جعلتا منه بطلاً مقداماً^(٧) في كل الحروب التي خاضها مجاهداً في سبيل الله سبحانه وتعالى.

ولم يعرف التاريخ الإسلامى تابِعاً مؤمناً كعبد الله بن عمر.

فهذا الفتى الأغر^(٨) أحب الرسول حباً ملك عليه قلبه وعقله، فتأثر به حتى حفظ كل تصرفاته.

(١) اليقين: الموت.

(٢) محمد ابن الحنفية: هو محمد بن علي بن أبي طالب، وقد نسب لأمه لتمييزه من الحسن والحسين، لأن أمهما فاطمة بنت النبي ﷺ وأم محمد امرأة من بنى حنيفة..

(٥) الخلق : الأخلاق .

(٤) يقتدى به : يُقَدِّد .

(٨) الأغر : الجميل .

(٧) مقدم : شجاع .

(٣) الحلم : من الرجولة .

(٦) الخلق : الهيئة والشكل .

وعندما أصبح رجلاً .. ومضى الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى. استمر يمارس العادات التي كان يقوم بها النبي ﷺ، وكان ذاكرته خزان لكل الصور والمشاهد التي رآها من خلال مرافقة النبي المصطفى.. وعرف بين المسلمين بأنه من أكثر الناس اتباعاً لأثار الرسول ﷺ.

لقد كان ابن عمر تاجراً كبيراً أصاب من التجارة مالاً كثيراً. كما كان دخله من بيت المال كبيراً. ولكنه لم يحاول أن يجمع ثروة كبيرة تفتته^(١) عن دينه أو يبذخ^(٢) في الأرض فينسى آخرته.

وحب الصدقة والإحسان للفقراء يمتلك في نفسه حتى قيل إنه كان يتصدق في المجلس الواحد بثلاثين ألف درهم.
وقصص الإحسان حول عبد الله أكثر من أن تعد وتحصى لأنه وقف حياته عليه.

وعلى الرغم من كثرة مال ابن عمر فإن الدنيا لم تفتته بزيفها ولا جذبتة بزخرفها. بل عاش حياته يبذل ماله في سبيل الله دون أن يفكر بنعيم العيش ورفاهية الحياة.

وكان الرسول الكريم يرى فيه رجل خير وتقى فعلمه كثيراً.. وحدثه كثيراً.. ونصحه كثيراً.

وفى ذلك يقول عبد الله:

أخذ رسول الله ﷺ يوماً ببعض جسدي وقال :

- يا عبد الله كن في الدنيا كأنك غريب ، أو كأنك جابر سبيل.. وعن نفسك كن في أهل القبور^(٣).

ثم قال لي :

- "يا عبد الله بن عمر فإنه ليس ثم دينار ولا درهم إنما هي حسنات وسيئات.. جزاء بجزاء وقصاص بقصاص. ولا تتبرأ من ولدك في الدنيا فيتبرأ الله منك في الآخرة. فيفضحك على رعوس الأشهاد".

(٣) أهل القبور : الموتى .

(٢) يبذخ : يسرف .

(١) تفتته : تحوله .

"ومن جر ثوبه خيلاء^(١) لم ينظر الله إليه يوم القيامة".

والنترم ابن عمر بنصيحة رسول الله ﷺ طيلة حياته فكان خير من حدث، وأحسن من أفتى.

وعاش عبد الله بن عمر حياته كلها زاهداً نعيمها لإيمانه أن النعيم الحقيقي هو في لقاء الله سبحانه وتعالى، بأعمال طاهرة ونفس طيبة.

ولم يزهد ابن عمر بمال الدنيا فقط. بل زهد بمناصبها ومراكزها وسلطتها.
وقال "مالك":

- بلغ ابن عمر ستاً وثمانين سنة، وأفتى في الإسلام ستين سنة، تقدم عليه وفود الناس من أقطار الأرض.

واعترل ابن عمر كل تقائل بين الإخوة. ومكث في المدينة يفتي في شئون الناس معتمداً على سعة علمه وصدق حديثه وعمق إيمانه.

وكان ابن عمر شديد الاحتياط والتوقى لدينه في الفتوى وكل ما تأخذ به نفسه.

روى ابن عمر الحديث عن رسول الله ﷺ فأكثر، وروى عن كبار الصحابة، وروى عنه كثير من التابعين وأكثرهم رواية عنه ابنه سالم ومولاه نافع.

ولما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان وكان العمر قد تقدم كثيراً بابن عمر، هاجم الحجاج بن يوسف الثقفي مكة ليقتضى على نفوذ عبد الله بن الزبير الذي تصدى لعبد الملك، ولم يقر له بالخلافة.

وفى موسم الحج أمر عبد الملك الحجاج بأن يحج مع عبد الله بن عمر وأن يقتدى به. فكان ابن عمر يتقدم الحجاج بالمواقف في عرفة وغيرها.
وحقد عليه الحجاج من أجل ذلك.

وفى أحد الأيام بينما الحجاج يخطب وهو فى أوج قوته وعظمته قال:

- إن ابن الزبير حرف كتاب الله.

انتفض ابن عمر فى مجلسه، وهو الذى عرف بأمانته واستقامته ومناصرتة

(١) خيلاء : غرور شديد .

للحق. ووقف وسط المسلمين في وجه الحجاج يصرخ موجهها كلامه إليه:
- كَذَّبْتُ.. كَذَّبْتُ.. كَذَّبْتُ..

فبهت^(١) الحجاج وأخذته المفاجأة، واعتراه الارتباك أمام صرخات ابن عمر، وعجز عن الرد عليه وهو الذي كانت ترهبه الناس. فحفظها في نفسه وتوعد عبد الله شراً.

وبالفعل نفذ الحجاج تهديده، وأوعز إلى أحد غلمانه بالقضاء على ابن عمر. وحضر الرجل حرباً مسمومة وسار خلف عبد الله حتى تمكن منه فوخزه برأس الحربة في قدمه فأدماه.

ومرض عبد الله بن عمر بسبب ذلك وبدأ السم يسرى في جسده. واشتد المرض عليه ولم يستطع جسمه أن يصمد طويلاً أمام هذا المرض وقد جاوز السادسة والثمانين من العمر وتوفي سنة ٧٣ من الهجرة. رحم الله عبد الله بن عمر فقد كان رقيق القلب يبكي إذا قرأ القرآن أو سمعه، وكان أيضاً شديد الحياء والذكاء.

* * *

عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنه -

هو أبو محمد عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي السهمي عرف بكثرة روايته للحديث النبوي، لأنه كان يكتب. وكان رضى الله عنه يكتب كل شيء يسمعه من رسول الله ﷺ، فمنهته الصحابة عن ذلك وقالوا له: إن النبي ﷺ يتكلم في الرضا والغضب فلا تكتب كل ما تسمع، فسأل النبي ﷺ عن ذلك فقال له الرسول ﷺ:

"فوالذي نفسى بيده ما خرج منهما إلا حق، يعني شفتيه".

وروى ابن سعد عن مجاهد أنه قال: رأيت عند عبد الله بن عمرو بن العاص صحيفة فسألت عنها فقال: هذه الصادقة فيها ما سمعت من رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه فيها أحد.

(١) بهت : ذهل .

ولنلق بعض الضوء على هذه الصحيفة الصادقة التي هي من أشهر الصحف المدونة في العهد النبوي.

الصادقة

من أشهر الصحف التي دونت وكتبت في العهد النبوي، صحيفة عبد الله ابن عمرو بن العاص وكان عمرو رضي الله عنه يسميها "الصادقة" ولهذه الصحيفة أهمية علمية بالغة، إذ إنها تعتبر من أهم الوثائق التاريخية للدلالة على كتابة الحديث بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله بإذنه، فقد كان ابن عمرو أول من كتب الحديث بين يدي رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

ويزيد من أهمية هذه الصحيفة ما ذكره ابن الأثير في "أسد الغابة" من أنها تضم ألف حديث وأن صاحبها متقدم الإسلام، وقد توافرت له من أسباب التحمل وكثرة الرواية ما لم يتوافر لغيره.

ولذا فقد جمع بين حفظ الحديث في قلبه، وكتابته في الصحف، يقول أبو هريرة رضي الله عنه : " ما كان أحد أكثر حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب " رواه البخاري.. ولكثرة ما حفظ عبد الله بن عمرو وما تحمل ، فقد كان الكثير من الصحابة - رضی الله عنهم - يحرصون على السماع منه والأخذ عنه، قالت عائشة - رضی الله عنها - لعروة ابن الزبير: يا ابن أختي بلغني أن عبد الله ابن عمرو مار بنا إلى الحج فألقه فأسأله فإنه قد حمل عن النبي صلى الله عليه وآله علماً كثيراً.

وترجع كتابة عبد الله بن عمرو للحديث إلى إذن رسول الله صلى الله عليه وآله له في الكتابة، فقد كان يحسن الكتابة ولا يلتبس عليه شيء، وفيما رواه ابن سعد عن عبد الله ابن عمرو أنه قال: استأذنت النبي صلى الله عليه وآله في كتابة ما سمعت منه فأذن لي فكتبت، فكان عبد الله يسمي صحيفته تلك الصادقة.

سبب تسمية صحيفته بالصادقة:

وسبب تسمية هذه الصحيفة بالصادقة، أنه كتبها عن رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرة، قال مجاهد: رأيت عند عبد الله بن عمرو بن العاص صحيفة فسألت عنها فقال: "هذه الصادقة فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يكن بيني وبينه أحد" رواه ابن سعد.

وقد كان عبد الله يروى ويملى الحديث، ولم تتحدث المصادر عن المنهج الذي كان يسير عليه في إملائه، ولكن المعروف عنه وعن غيره من الصحابة أنهم كانوا في غاية التثبت لما يروون، سواء أكان من الحفظ أم كان من الصحيفة الصادقة أم كان من غيرها.

وكان عبد الله بن عمرو يعتز بالصحيفة الصادقة، لأنه أخذها وكتبها عن رسول الله ﷺ ليس بينه وبين رسول الله ﷺ أحد، حتى إنه كان يقول: ما يرغبني في الحياة إلا خصلتان: الصادقة والوهط، فأما الصادقة فصحيفة كتبتها عن رسول الله ﷺ، وأما الوهط فأرض تصدق بها عمرو بن العاص كان يقوم عليها.

وكان عبد الله بن عمرو يملئ الأحاديث على تلاميذه ومن يتلقون عنه السنة، كما كان محافظا على صحيفته، ويوليها أكبر العناية والصيانة خشية الضياع، وقد حفظ أهله من بعده هذه الصحيفة، وكان حفيده عمرو بن شعيب يحدث منها.

ومع كثرة ما تحمل عبد الله بن عمرو، ومع أنه كان يكتب الحديث، وأبو هريرة لا يكتب إلا أننا نرى أن ما رواه أبو هريرة أضعاف ما رواه ابن عمرو، مع أنه كان من المنتظر والمحتمل أن يكون العكس.

والسبب في كثرة مرويات أبي هريرة عن عمرو:

على الرغم من أن هذه حقيقة بالفعل لكننا إذا عرفنا أن ابن عمرو كان اشتغاله بالعبادة أكثر من التعليم، وأنه أقام بعد الفتوح في مصر، بينما كان أبو هريرة في المدينة، يتصدر للتحديث هذا إلى جانب ما حظى به أبو هريرة من دعوة رسول الله ﷺ له ألا ينسى، إذا عرفنا هذا، وقفنا على السبب في كثرة مرويات أبي هريرة على ابن عمرو - رضى الله تعالى عنهما -.

وقد نزل كثير من صحابة رسول الله ﷺ مصر، بعد الفتح الإسلامي، وأشهر الصحابة عبد الله بن عمرو بن العاص الذي كان من أكثر الصحابة حديثا عن رسول الله ﷺ، حيث كان يمتاز عن غيره بكتابة ما يسمعه من الرسول ﷺ كما سبق وقلنا.

عقبة بن عامر الجهني - رضى الله عنه -

هو عقبة بن عامر بن عيس، من جهينة، من قضاة، يرجع أصله إلى اليمن.

روى عقبة واقعة مع رسول الله ﷺ تبين لنا أصله اليمني، قال: قال رسول الله ﷺ يوماً: من كان هنا من معد فليقم، فقام رجال، وقمت معهم، فقال لى: اجلس، قال ففعل بي مرتين أو ثلاثاً، فقلت: يا رسول الله ألسنا من معد؟ قال: لا، قلت: ممن نحن؟ قال: أنتم من قضاة بن مالك بن حمير. (١)

وكان عقبة راعي غنم قرب المدينة، ولما هاجر رسول الله ﷺ، وسمع عقبة بمقدمه وما جاء به، أراد أن يدخل في الإسلام، ودخل على رسول الله ﷺ مبايعاً، فسأله إن كان سيعيش في المدينة أو يرحل إلى قومه قضاة؟ وكان جوابه أنه سيقم.

روى ابن سعد: قال عقبة: يا رسول الله جئت أبايعك. فقال: بيعة أعرابية تريد أو بيعة هجرة. قلت: بيعة هجرة. فبايعني على الهجرة وأقمت. (٢)

ويقصد رسول الله ﷺ بالبيعة الأعرابية، أن يبايع ويرجع إلى البادية من حيث جاء، وقد كان ذلك مرفوضاً في تلك المرحلة المبكرة التي أعقبت الهجرة، إذ كان يخشى على من يسلم أن يعود إلى البادية، فيبتعد عن الدين، ويرتد إلى الكفر.

وكان بقاء المسلمين في المدينة نوعاً من الاستقرار، بجانب منبع الوحي، ومصدر الإيمان، ليتزودوا من علم الدين على يد رسول الله ﷺ، وليتكون منهم جيش الإسلام وأمة المؤمنين. (٣)

وقد كانت الهجرة فعلاً تعنى هجرة الوطن إيثاراً للإيمان، ومن هؤلاء المؤمنين الذين استقروا بالمدينة، وتركوا التبدي كان جيش الدعوة الذي حقق الله به النصر في كل المعارك.

ولما دخل عقبة الإسلام، كان من خدم رسول الله ﷺ، يأخذ بزمام بغلته، ويقودها في الأسفار، وهو من أهل الصفة، أي: من المهاجرين الفقراء الذين لم

(٣) النجوم الزاهرة ١/ ١٢٧.

(٢) الطبقات ٤/ ٣٤٤.

(١) كنز العمال ١٢/ ٤٩٥.

يكن لهم مأوى، ولا بيت بالمدينة، وإنما كان منزلهم في مسجد رسول الله ﷺ شمالي الحجرات.

وعقبة ممن جمع القرآن الكريم في مصحف خاص به.

قال ابن يونس: رأيت مصحفه بمصر على غير تأليف مصحف عثمان، وفي آخره: كتبه عقبة بن عامر بيده. (١)

ولم يكن عقبة كاتباً فقط. بل كان شاعراً، قارئاً^(٢)، عالماً بالفرائض، فقيهاً، فصيح اللسان، راوية لأحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ، قيل: خمسة وخمسين. وقال ابن تغري بردي: وللمصريين عنه نحو مائة حديث. (٣)

وفي عهد أبي بكر خرج عقبة مع المحاربين في الفتوحات إلى الشام، وفي عهد عمر كان هو البشير إلى المدينة بفتح دمشق.

ثم إنه كان أحد قادة جيوش المسلمين التي فتحت "مصر" فكافأه أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان^(٤) بأن جعله والياً عليها ثلاث سنوات.

وعاش عقبة أميراً على مصر، ورأى معاوية أن يوجهه لعملية جهاد لا يصلح فيها غيره، فأمره أن يتوجه إلى جزيرة (رودس)، في الوقت الذي أرسل والي الجديد مسلمة بن مخلد، وأوصاه أن يكتف ذلك عن عقبة حتى يخرج للغزو.

وتسلم مسلمة بن مخلد زمام السلطة بعد أن غادر عقبة الفسطاط في طريقه لرودرس.

قال ابن تغري بردي: فكان ذلك لعشر بقين من ربيع الأول. (٥) بعد أن دامت ولاية عقبة سنتين وثلاثة أشهر.

لقد كان عقبة رجلاً فريداً بين أقرانه، نذر نفسه للجهاد، وعلم أن الله اختاره لصفات فطر عليها، وأنه ينبغي أن يلزم طريق الجهاد لا يحيد عنه، فشارك

(١) قال الذهبي: الإمام المقرئ أبو عيسى أحسن الناس صوتاً. (سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٠٦).

(٢) النجوم الزاهرة ١/ ١٢٧.

(٣) كانوا حوالي أربعمائة رجل من المهاجرين منهم أبو هريرة، وابن أم مكتوم، وصهيب وسلمان وخباب وبلال.

(٤) معاوية بن أبي سفيان: صنخر بن حرب القرشي الأموي، أسلم عام الفتح وكان من كتبة الوحى، أسس الدولة الأموية بالشام، وكانت وفاته سنة ٦٠ هـ.

(٥) النجوم الزاهرة ١/ ١٢٨.

بعد ذلك في حصار القسطنطينية تحت إمرة يزيد بن معاوية، وهى أولى محاولات فتح القسطنطينية التى مات خلالها أبو الأنصارى، ودفنه يزيد تحت أسوارها.

ويبدو أن عقبة كان ملماً ببعض ما يؤخذ على مسلمة، ولكنه آثر أن يسلك مسلك الورع الذى يبدو فى قوله حين قدم إلى مسلمة بعد توليته مصر: أتذكر يوم قال ﷺ: من علم من أخيه سبة فسترها، ستره الله بها من النار يوم القيامة؟ قال مسلمة: نعم. قال عقبة: فلهذا آخيتك.

وعلى كل، فلا بد أن نسجل هنا إعجابنا بالرجلين كليهما، فإن مسلمة لم يضق بعقبة، بل أبقاه معه أكثر من عشر سنوات دون أن يخشى أذى من خلفه، شأن الولاة الذين يقضون على أسلافهم تأميناً لاستمرارهم فى الولاية، لقد تعايش الرجلان بكل الحب، وتأخيا على مدد من تعاليم النبوة، ولذا عاش عقبة فى مصر آمناً، فى البلد الذى اختاره، يروى حديث رسول الله ﷺ، ويبلغ دعوته، ويأتيه الصحابي من المدينة كجابر بن عبد الله وأبى أيوب الأنصارى، وغيرهما، ليتناقشوا فى حديث سمعه من رسول الله ﷺ، ودام على ذلك إلى أن وافاه الأجل فى أواخر عهد معاوية^(١) عام ٥٨ للهجرة، ودفن فى سفح المقطم، وكان قبل وفاته قد أوصى بما خلف: سبعين فرساً بجعابها^(٢) ونبالها فى سبيل الله.

ومما روى عن عقبة من أحاديث رسول الله ﷺ قوله: كنت آخذاً بزمام بغلة رسول الله ﷺ فقال: هل أعلمك سورتين؟ فقلت: بلى يا رسول الله. قال: فاقرأ (قل أعوذ برب الناس وقل أعوذ برب الفلق)، ثم أقيمت الصلاة، فتقدم، فصلى بهما، وقال: اقرأهما كلما نمت وقمت. وفى رواية: أمرنى ﷺ أن أقرأ بالمعوذات دبر كل صلاة.

وروى الإمام أحمد عنه حديثاً قال: ذهب عقبة إلى المسجد الأقصى ليصلى، فرآه الناس فاتبعوه، فقال لهم: مالكم؟ قالوا: أتيناك لصحبك لرسول الله ﷺ لتحدثنا بما سمعت منه. قال: انزلوا فصلوا، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من عبد يلقى الله عز وجل لا يشرك به شيئاً، ولم يتد^(٣) بدم حرام إلا دخل من أى أبواب الجنة شاء.^(٤)

(١) قالت د. سعاد ماهر: توفى فى اليوم الذى توفيت فيه السيدة عائشة فى ٨ شعبان عام ٥٨ للهجرة. (٢)

(٢) الجعاب: جمع جعبة، وهى: وعاء السهام والنبال. (٣) لم يصب منه شيء. (٤) كنز العمال ١٥ / ٣٥.

وأما في مجال الجهاد، فحسبنا أن نعلم أن عقبة بن عامر الجهني شهد مع رسول الله ﷺ "أحداً" وما بعدها من المغازي، وأنه كان أحد الكمأة الأشاوس المغاوير، الذين أبلوا يوم فتح "دمشق" أعز البلاء وأعظمه، فكافأه أبو عبيدة بن الجراح^(١) على حسن بلائه بأن بعثه بشيراً إلى عمر بن الخطاب في المدينة ليشيره بالفتح، فظل ثمانية أيام بلياليها من الجمعة إلى الجمعة يغذ السير دون انقطاع، حتى بشر الفاروق بالفتح العظيم.

وقد بلغ من ولع عقبة بن عامر الجهني بالجهاد، أنه وعى أحاديث الجهاد في صدره، واختص بروايتها للمسلمين، وأنه دأب على حذق الرماية حتى إنه إذا أراد أن يتلهى تلهى بالرمى.

قال ابن عبد الحكم: كان عقبة رسول عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص حين كتب إليه يأمره أن يرجع إن لم يكن قد دخل مصر.^(٢) ثم شارك في فتحها، وعاش فيها، واختط بها، حتى تولى إمارتها عام ٤٤ للهجرة ثم عزل وتولى بعده مسلمة بن مخلد عام ٤٧ للهجرة.

ولما مرض عقبة بن عامر الجهني مرض الموت - وهو في "مصر" - جمع بنيه فأوصاهم فقال: يا بني أنهاكم عن ثلاث فاحفظوا بهن:

لا تقبلوا الحديث عن رسول الله ﷺ إلا من ثقة، ولا تستدينوا ولو لبستم العباء^(٣)، ولا تكتبوا شعراً فتشغلوا به قلوبكم عن القرآن.

ولما أدركته الوفاة عام ٥٨هـ، دفنوه في سيفح "المقطم" ثم انقلبوا إلى تركته يفتشونها، فإذا هو قد خلف بضعا وسبعين قوساً، مع كل قوس قرن ونبال، وقد أوصى بهن أن يجعلن في سبيل الله.

ولقد عاش في مصر راوية لحديث رسول الله ومعلماً للناس وقد روى أحاديث بلغت ٥٥ حديثاً.

رحم الله العالم الغازي عقبة بن عامر الجهني، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

(١) أبو عبيدة بن الجراح: انظره ص ٩١. (٢) فتوح مصر ٩٤. (٣) العباء: كساء مفتوح من الأمام.

أبو أيوب الأنصاري - رضی الله عنه -

هو خالد بن زيد بن كليب النجاري الخزرجي الأنصاري شهد العقبة وهدراً وأحداً وكل المشاهد مع رسول الله ﷺ وكان بيته أول منزل لرسول الله ﷺ في المدينة حتى بنى الحجرات والمسجد، وكان النبي ﷺ قد أقام في بني عمرو بن عوف خمس ليال قبل أن يخرج إلى المدينة، فكان كل قوم يدعونه لينزل عندهم، فيقول لهم: اتركوها - أي: الناقة- فهي مأمورة، حتى بركت على باب أبي أيوب، وهناك أمر رسول الله ﷺ ببناء المسجد.

ومما ذكره الرحالة بيرتون في كتابه عن رحلاته إلى مصر والحجاز، ذكر فيها بعض تفاصيل عن تاريخ المدينة المنورة، منها حديثه عن تبع اليماني الذي دان باليهودية، وكان أول من كسا الكعبة، قال بيرتون: وبعد أن شيد داراً للنبي المرتقب، عاد لحاضرة بلاده في اليمن، وأبطل الوثنية، وكتب وهو على فراش الموت ما يلي: أشهد بصدق أحمد الصادق، أشهد أنه رسول الله خالق الأرواح، وإذا امتد بي الأجل لأشهد أيامه لكننت له وزيراً وابن عم.

وبعد أن ختم الورقة بخاتمه قدمها لرئيس الأحرار اليهود لتكون وديعة عنده مع وصية مهيبه بأن يسلم الخطاب- إذا أتحت الفرصة، للنبي العظيم، وإذا بعد يوم ظهوره ﷺ، فلا بد أن تتوارث الأجيال هذه الرسالة، حتى يتم تسليمها له.

أما المنزل الذي شيده تبع في المدينة ليكون مقراً للرسول الخاتم، فقد سلمه للجد الذي كان أبو أيوب الأنصاري أحد أفراد سلالته، وكان أبو أيوب هو أول شخص يمر الرسول ﷺ ببيته، بعد أن أنهى رحلة الهجرة.

وكان أبو أيوب يحتفظ بخطاب تبع، وهكذا وصل الخطاب الذي كتبه تبع إلى الرسول ﷺ بعد ثلاثة قرون أو أربعة.^(١)

وقد التزم أبو أيوب بقوله تعالى (انفروا خفافاً وثقالاً) طوال حياته، فكان مع النبي ﷺ، ثم انتقل إلى الشام ومصر، وشارك في فتحهما.

ولما تولى علي بن أبي طالب الخلافة، كان معه في الجمل وصفين والنهروان،

(١) رحلة بيرتون ٦٩/٢.

ثم خرج في جيوش معاوية بن أبي سفيان لفتوحات الروم براً وبحراً، حتى إنه جاء مصر مرة عام ٤٦ للهجرة عن طريق البحر.

وفي عام ٥٠ للهجرة خرج في جيش بقيادة يزيد بن معاوية، وتوغلوا إلى الشمال من أرض الروم، ومرض أبو أيوب وعاده يزيد، وقال له: ما حاجتك؟ قال: حاجتي إذا أنا مت، فاركب ثم سغ^(١) في أرض العدو ما وجدت مساعاً، فادفني، ثم ارجع. فلما مات حمله يزيد حتى اقترب من أسوار القسطنطينية، ودفنه هناك بجوار السور، بعد أن صلى عليه.

ولقد أصبح مثنوى أبي أيوب بعد الفتح الإسلامي للقسطنطينية معلماً كبيراً من معالم الإسلام، فهو بالنسبة لخلفاء بني عثمان اللواء الذي يرفعونه فوق رؤوسهم، ويلبسون تيجانهم في ظله، ويبداون خلافتهم في ساحته، ويأخذون العهد بنصرة الإسلام بمشهد منه، لأنه رمز الجهاد الإسلامي، والتضحية في سبيل المبدأ والعقيدة، والبداية الصحيحة للفتح الإسلامي الذي حققته الدولة العثمانية بعد وفاة أبي أيوب بتسعة قرون تقريباً، وحتى بعد قيام الجمهورية في تركيا، مازال قبر أبي أيوب مزاراً ومشهداً ومفخرة لكل الترك، رغم سيطرة العلمانية، الأتاتركية.

وقد روى أبو أيوب أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ قال بعض الرواة: إنها بلغت مائة وخمسة وخمسين حديثاً، وكان رضى الله عنه لا يرويه إلا مطبقاً للناس ما أخذه من مدرسة رسول الله ﷺ، وسنذكر بعضاً من هذه التعاليم.

روى أثناء حرب الروم قرب القسطنطينية عن أبي عمران التجيبي، قال: صلى عقبة بن عامر صلاة المغرب، فأخبرنا، ومعنا أبو أيوب الأنصاري، فقال له أبو أيوب: أتؤخر صلاة المغرب هذا التأخير، وأنت من أصحاب رسول الله ﷺ، فإراك من لم يصحبه، فيظن أنه وقتها؟ فسأل عمران أبا أيوب: فمتى وقتها؟ فقال: كنا نصليها حين تجب الشمس، نبادر بها طلوع النجوم.^(٢)

وروى أنه كان في حرب ضد الروم، وخرج صف عظيم من الروم، وصف المسلمون صفا عظيماً، فحمل رجل من المسلمين على الروم، ثم خرج إلينا

(٢) فتوح مصر ٢٦٩. وتجب الشمس: تختفى.

(١) سغ: أدخل.

- يقول الراوى - وصاح الناس: سبحان الله ألقى بيده إلى التهلكة فقام أبو أيوب، فقال: أيها الناس، إنكم لتأولون هذه الآية على هذا التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، إنه لما أعز الله دينه، وكثر ناصره، قلنا فيما بيننا بعضنا لبعض سراً من دون رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، فلو أنا أقمنا فيها، فأصلحنا ما ضاع منها؟ فأنزل الله عز وجل في كتابه يرد علينا ما هممنا به: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمُ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فكانت التهلكة أن نقيم في الأموال ونصلحها، فأمرنا بالغزو. (١)

روى أبو أيوب بعض مواقف حياته ﷺ تبين مدى تجاوب الوحي مع المؤمنين، وتجاوبهم معه، يقول أبو أيوب: - في بدر - أمرنا ﷺ أن نتعاد، ففعلنا، فإذا نحن ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فأخبرنا رسول الله ﷺ بعدتنا، فسر بذلك، وحمد الله، وقال: عدة أصحاب طالوت.

ثم اجتمعنا مع القوم، فاصطفنا، فبدت منا بادرة، فقال ابن رواحة: يا رسول الله، إنى أريد أن أشير عليك ورسول الله أفضل مما يشار عليه، إن الله أجل من أن يشك في وعده، فقال: يا ابن رواحة، لا تشكن في وعد الله، إن الله لا يخلف الميعاد. وأخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب، فرمى بها وجوه القوم، فانهزموا، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَنْ يَكُ اللَّهُ رَمِيًّا﴾ [الأنفال: ١٧]، فقتلنا وأسرننا، فقال عمر بن الخطاب: لا يكون أسرى، إنما نحن داعون. فقلنا معشر الأنصار: إنما حمل عمر حسد لنا. فنام ﷺ ثم استيقظ فقال: ادع لى عمر. فدعى، فقال: إن الله قد أنزل: ﴿مَا كَانَتْ لِيَّيَّ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ أَسْرَى حَتَّى يُتَخَذَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧].

لقد عاش أبو أيوب فارساً غازياً، تصحبه أخلاق الفرسان من أول يوم دخل فيه الإسلام، حتى توفاه الله، ودفن تحت أسوار القسطنطينية عام ٥٠ للهجرة.

* * *

أبو الدرداء عويمر بن عامر الأنصاري الخزرجي - رضی الله عنهما -

هو عويمر بن مالك الخزرجي، المكنى بأبي الدرداء، ويرجع نسبه إلى الخزرج وهي قبيلة يمانية الأصل ارتحلت إلى المدينة واستقرت فيها وكانت هي والأوس تكونان جمهرة الأنصار.

تأخر إسلامه قليلاً، فشهد مع رسول الله ﷺ ما بعد أحد.

كان فقيهاً، عاقلاً، حكيماً، شجاعاً، قال الرسول ﷺ عنه: عويمر حكيم أمتي، وقال: نعم الفارس عويمر.

وقال عنه ابن سعد: جمع القرآن في زمان رسول الله ﷺ خمسة من الأنصار: معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبي بن كعب، وأبو أيوب، وأبو الدرداء.^(١)
روى أحاديث عن رسول الله ﷺ أوصلها صاحب الأعلام إلى تسعة وتسعين حديثاً ومائة حديث.

قال أبو الدرداء يشجع الناس على قراءة شيء من القرآن كل يوم: أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن كل ليلة؟ قالوا: نحن أعجز من ذلك وأضعف. قال: فإن الله عز وجل جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل (قل هو الله أحد) جزءاً من أجزاء القرآن.^(٢)

وأبو الدرداء كان يحس إحساساً صادقاً أنه خلق لما نذر له حياته.. التخصص في نشدان الحقيقة بممارسة أقصى حالات التبذل وفق الإيمان الذي هداه إليه ربه، ورسوله، والإسلام.

وإذا رأينا أن هذا تصوف، فهو تصوف رجل توفر له من فطنة المؤمن، وقدرة الفيلسوف، وتجربة المحارب، وفقه الصحابي، مما جعل تصوفه حركة حية في بناء الروح، لا مجرد ظلال صالحة لهذا البناء!!..
أجل..

ذلكم هو أبو الدرداء، صاحب رسول الله ﷺ وتلميذه.. وذلكم هو أبو الدرداء، القديس، والحكيم.

(٢) أسد الغابة ٦/٩٧.

(١) شارك ثلاثة منهم في فتح مصر.

وإذا اقتربنا من فلسفته تجاه الدنيا وتجاه مباحها وزخرفها.. نجد إنه متأثر حتى أعماق روحه بآيات القرآن الرادعة عن: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ٢، ٣].

ومتأثر حتى أعماق روحه بقول الرسول: "ما قل وكفى، خير مما كثر وألهى".. ويقول عليه الصلاة والسلام:

"تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم، فإنه من كانت الدنيا أكبر همه، فرق الله شمله، وجعل فقره بين عينيه.. "ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع شمله، وجعل غناه في قلبه، وكان الله إليه بكل خير أسرع".

وقد كان يدعو الناس إلى امتلاك الدنيا بالاستغناء عنها.. فذلك هو الامتلاك الحقيقي لها.. أما الجرى وراء أطماعها التي لا تؤذن بانتهاء، فذلك شر ألوان العبودية والرق.

هنالك يقول:

"من لم يكن غنياً عن الدنيا، فلا دنيا له"..

والمال عنده وسيلة للعيش الفنون المعتدل، ليس غير.

ويكتب لصاحب له فيقول:

".. أما بعد، فلست في شيء من عرض الدنيا، إلا وقد كان لغيرك قبلك.. وهو صائر لغيرك بعدك.. وليس لك منه إلا ما قدمت لنفسك.. فأثرها على من تجمع له المال من ولدك ليكون له إرثاً، فأنت إنما تجمع لواحد من اثنين:

"إما ولد صالح يعمل فيه بطاعة الله؛ فيسعد بما شقيت به..

"وإما ولد عاص، يعمل فيه بمعصية الله، فتشقى بما جمعت له..

"فثق لهم بما عند الله من رزق، وانج بنفسك"!!

كانت الدنيا كلها في عين أبي الدرداء مجرد عارية..

وقد عاش أبو الدرداء في الشام بعد أن شارك في فتح مصر، وقد ولاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب القضاء على دمشق، فكان أول قاض لها، وذلك عام

٢٣ للهجرة، ولكنه حين مضى لهنالك هاله ما رأى فرأهم قد أولعوا بالترف وانغمسوا في النعيم، فدعاهم للمسجد وراح يذكرهم بمنهج الرسول في حياته، وزهده، وبمنهج الرعيل الأول من الشهداء والصدّيقين.. ولم يقتصر عمله في دمشق على القضاء فحسب، بل شارك في الأعمال الحربية، فقد خرج عام ٢٨ للهجرة في حملة فتح قبرص، وخرج معه عدد كبير من الصحابة منهم أبو أيوب وأبو ذر وعبادة بن الصامت.

وعندما فتحت "قبرص" وحملت غنائم الحرب إلى المدينة رأى الناس أبا الدرداء يبكي.. واقتربوا دهشين يسألونه، وتولى توجيه السؤال إليه "جبير بن نفير":

قال له:

"يا أبا الدرداء، ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله"؟؟..

فأجاب أبو الدرداء في حكمة بالغة وفهم عميق:

"ويحك يا جبير..

"ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره..

"بينما هي أمة قاهرة، ظاهرة، لها الملك، تركت أمر الله، فصارت إلى ما ترى"!!..

وكان أهلها ضاقوا ذرعاً بهذا الذي ينغص عليهم لمواعظه متاعهم وديارهم.. فجمعهم أبو الدرداء، وقام فيهم خطيباً:

"يا أهل دمشق..

"أنتم الإخوان في الدين، والجيران في الدار، والأئصار على الأعداء..

"ولكن ما لي أراكم لا تستحيون؟؟..

"تجتمعون ما لا تأكلون..

"وتبنون ما لا تسكنون..

"وترجون ما لا تبلغون..

"قد كانت القرون من قبلكم يجمعون، فيوعون..

"ويوملون، فيطيلون..

"ويبنون، فيوثقون.."

"قأصبح جمعهم بوراً.."

"وأملهم غروراً.."

"وبيوتهم قبوراً.."

"أولئك قوم عاد، ملوا ما بين عدن إلى عمان أموالاً وأولاداً..".

ثم ارتسمت على شفتيه بسمة عريضة ساخرة، ولوح بذراعه في الجمع
الذاهل، وصاح في سخرية لافحة:

"من يشتري منى تركة آل عاد بدرهمين"!!؟.."

فجعل الناس يبكون حتى سمع نشيجهم من خارج المسجد. ومنذ ذلك اليوم
طفق أبو الدرداء يوم مجالس الناس في دمشق ويطوف بأسواقهم، فيجيب السائل،
ويعلم الجاهل منتها كل فرصة يفيد فيها الآخرين.

فكم كان رجلاً باهراً، رائعاً، مضيئاً، حكمته مؤمنة، ومشاعره ورعة، ومنطقه
سديد ورشيد!!..!

والعبادة عند "أبي الدرداء" ليست غروراً ولا تألياً. إنما هي التماس للخير
وتعرض لرحمة الله، وضراعة دائمة تذكر الإنسان بضعفه. وبفضل ربه عليه.

وتستوصى حكمة "أبي الدرداء" بالإخاء خيراً، وتبني علاقة الإنسان بالإنسان
على أساس من واقع الطبيعة الإنسانية ذاتها، فيقول:

"معاينة الأخ خير لك من فقده، ومن لك بأخيك كله..؟"

"أعط أخاك ولن له.."

"ولا تطع فيه حاسداً، فتكون مثله.."

"غداً يأتيك الموت، فيكيفبك فقده..."

وكيف تبكيه بعد الموت، وفي الحياة ما كنت أدبت حقه"!!..؟

ومراقبة الله في عباده قاعدة صلبة يبني عليها "أبو الدرداء" حقوق الإخاء..
يقول ﷺ وأرضاه:

"إني أبغض أن أظلم أحداً.. ولكني أبغض أكثر وأكثر، أن أظلم من لا يستعين
على إلا بالله العلي الكبير"!!..!

وقد عاش أبو الدرداء في دمشق بعد ذلك حتى توفي عام ٣٢ للهجرة، ودفن بها في خلافة عثمان بن عفان.

ولم ينس وهو يعاني سكرات الموت، وفي اللحظات الأخيرة أن يعظ ابنه بلالا، ويقول له: اعمل لمثل مصرع أبيك، واذكر مصرعك وساعتك.^(١)

هذا هو - أبو الدرداء الحكيم...!!

هذا هو - أبو الدرداء الزاهد، العابد، الأواب..

هذا هو - أبو الدرداء الذي كان إذا أطرى الناس تقاه، وسألوه الدعاء، أجابهم في تواضع وثيق قائلاً:

"لا أحسن السباحة... وأخاف الغرق"...!!

* * *

عامر بن عبد الله التيمي - رضى الله عنه -

هو عامر بن عبد الله التيمي العنبري - من بنى تميم.. شارك في بناء وتخطيط مدينة "البصرة" مع كبار الصحابة والتابعين بأمر من خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث أرادوا جميعاً أن يجعلوها قاعدة^(١) للدعوة إلى الله عز وجل.. ومنازة لإعلاء كلمته في الأرض.. وكان ذلك في السنة الرابعة عشرة للهجرة .

وكان عامر بن عبد الله يومئذ فتى في بواكير^(٢) الصبا، غض الإهاب^(٤) ريان الشباب، وضىء الوجه، زكى النفس، نقى القلب..

وكانت "البصرة" على حدائتها من أغنى بلاد المسلمين ، وأوفرها ثروة، لما كان يتدفق عليها من غنائم الحرب، وينصب فيها من الذهب النضار^(٥)..

لكن الفتى التيمي عامر بن عبد الله لم يكن له حاجة في ذلك كله.. فلقد كان زهاداً بما في أيدي الناس، رغباً بما عند الله.. معرضاً عن الدنيا وزينتها، مقبلاً على الله ومرضاته..

(٢) قاعدة للدعوة: منطلقاً للدعوة.

(٤) غض الإهاب: طرى الجلد (كناية عن صباه).

(١) فتوح مصر: ٢٨٦.

(٣) بواكير الصبا: أوائل الصبا.

(٥) الذهب النضار: الذهب الخالص.

وكان رجل "البصرة" ومقدمها يومئذ الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، ونضر في الجنة وجهه.

فهو والى المدينة الزاهرة.. وهو قائد جيوش المسلمين المنطلقة منها في كل اتجاه.. وهو إمام أهلها، ومعلمهم، ومرشدهم إلى الله عز وجل..

لزم عامر بن عبد الله أبا موسى الأشعري في سلمه وحربه.. وصحبه في حله وترحاله..

فأخذ عنه كتاب الله رطباً طرياً كما نزل على فؤاد محمد.. وروى عنه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيحاً موصولاً بالنبي الكريم.. وتفقه على يديه في دين الله عز وجل.. فلما اكتمل له ما أراد من العلم، جعل حياته أقساماً ثلاثة:

شطر ^(١) في حلقات الذكر، يقرئ فيه الناس القرآن في مسجد "البصرة".. وشطر في خلوات العبادة، ينتصب فيه قائماً بين يدي الله حتى تكل قدماه.. وشطر في ساحات الجهاد، يسل فيه سيفه غازياً في سبيل الله.. ولم يترك في حياته موضعاً لشيء غير ذلك أبداً.. حتى دعى بعباد "البصرة" وزاهدها..

غير أن عامر بن عبد الله لم يكن راهباً من رهبان الليل فحسب، وإنما كان فارساً من فرسان النهار أيضاً.. فما أن مؤذن للجهاد في سبيل الله إلا كان في طليعة من يجيب نداءه.

وكان إذا نهد ^(٢) لغزوة من الغزوات مع المجاهدين، وقف يتوسم ^(٣) الناس ليختار رفاقه.

فإذا وقع على رفقة توافقه، قال لهم:

يا هؤلاء، إنى أريد أن أصحبكم على أن تعطوني من أنفسكم ثلاث خلال ^(٤).. فيقولون: ما هن؟

فيقول: أولاً أن أكون لكم خادماً، فلا ينازعني أحد منكم في الخدمة أبداً. والثانية أن أكون لكم مؤذناً، فلا ينازعني أحد منكم النداء للصلاة.

(٢) نهد لغزوة: أشرع لغزوة.

(٤) خلال: خصال.

(١) الشطر: القسم.

(٣) يتوسم الناس: يتفرس الناس ويتعرفهم.

والثالثة أن أنفق عليكم بقدر طاقتى.. فإن قالوا: نعم، انضم إليهم.. وإذا نازعه أحد منهم شيئاً من ذلك رحل عنهم إلى غيرهم.

ولقد كان عامر من أولئك المجاهدين الذين يكثرون عند الفزع، ويقولون عند الطمع... فهو يعشى^(١) الوغى كما لا يغشاها أحد سواه... ولكنه يعف عند المغنم كما لا يعف عنه أحد غيره.

لكن حياة عامر بن عبد الله - على الرغم مما عرفت من أمره - لم تخل من المنغصات^(٢)، ولم تسلم من أذى الناس.

وكان السبب المباشر فيما لحق به من أذى.. أنه أبصر رجلاً من أعوان صاحب شرط^(٣) "البصرة" وقد أمسك بخناق^(٤) رجل من أهل الذمة^(٥)، وجعل يجره جراً.. والذمى يستغيث الناس ويقول:

أجبرونى أجاركم الله.. أجبروا ذمة نبيكم^(٦) يا معشر المسلمين.. فأقبل عامر عليه وقال: هل أديت جزيتك؟

فقال: نعم، أديتها.

فالتفت إلى الرجل الممسك بخناقه وقال: ما تريد منه؟!

فقال: أريد أن يذهب معى ليكسح^(٧) حديقة صاحب الشرط..

فقال للذمى: أتطيب نفسك بهذا العمل؟

فقال: كلا..

فذلك يهد قواى، ويشغلنى عن كسب قوت عيالى.. فالتفت عامر إلى الرجل وقال: دعه^(٨)..

فقال: لا أدعه..

فما كان من عامر إلا أن ألقى رداءه على الذمى وقال:

(١) يعشى الوغى: يخوض الحرب.

(٢) المنغصات: المكدرات.

(٣) صاحب الشرط: مدير الشرطة، والشرط جمع مفردة شرطة وشرطى.

(٤) الخناق: العنق.

(٥) أهل الذمة: من دخل فى عهد المسلمين وحمائهم من اليهود والنصارى وغيرهم.

(٦) أجبروا ذمة نبيكم: احصوا من دخل فى ذمة نبيكم.

(٧) يكسح الحديقة: ينظفها.

(٨) دعه: اتركه.

والله، لا تخفر^(١) ذمة محمد وأنا حي.. ثم تجمع الناس، وأعانوا عامراً على الرجل، وخلصوا الذمي بالقوة.

فما كان من أعوان صاحب الشرط إلا أن اتهموا عامراً بنبذ^(٢) الطاعة.. ورموه بالخروج على السنة والجماعة.. وقالوا: إنه امرؤ لا يتزوج النساء.. ولا يأكل لحم الحيوانات وألبانها.. ويتعالى على غشيان^(٣) مجالس الولاية.. ورفعوا أمره إلى أمير المؤمنين "عثمان بن عفان" ^(٤) رضي الله عنه.

أمر الخليفة واليه على "البصرة" بأن يدعو عامر بن عبد الله إلى مجلسه، وأن يسأله عما نسب إليه.. وأن يرفع له خبره..

فاستدعى والي "البصرة" عامراً وقال:

إن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - أمرني أن أسألك عن أمور نسبت إليك.. فقال: سل عما أمر به أمير المؤمنين.

فقال: ما لك تعزف^(٥) عن سنة رسول الله ﷺ، وتأبى أن تتزوج؟!.

فقال: ما تركت الزواج عزوفاً عن سنة النبي ﷺ.. فأنا أشهد أنه لا رهبانية^(٦) في الإسلام..

وإنما أنا امرؤ رأى أن له نفساً واحدة، فجعلها لله عز وجل، وخشى أن تغلبه الزوجة عليها.

فقال: ما لك لا تأكل اللحم؟!.

فقال: بل آكله إذا اشتهيته ووجدته.. أما إذا لم أشتهه، أو اشتهيته ولم أجده فإني لا آكله.

فقال: مالك لا تأكل الجبن؟!.

فقال: إنا بمنطقة فيها "مجوس"^(٧) يصنعون الجبن.. وهم قوم لا يفرقون بين الميتة والمذبوحة.

(١) لا تخفر ذمة محمد: لا ينقض عهد محمد ﷺ. (٢) نبذ الطاعة: ترك الطاعة.

(٣) غشيان مجالس الولاية: شهود مجالس الولاية.

(٤) عثمان بن عفان: كتاب "صور من حياة الصحابة" د. عبد الرحمن رأفت الباشا.

(٥) تعزف: تزهد وتميل. (٦) لا رهبانية: لا امتناع عن الزواج.

(٧) المجوس: طائفة تعبد الشمس أو النار.

وإني لأخشى أن تكون المنفحة^(١) التي صنع بها الجبن من شاة غير مذكاة^(٢)،
فما شهد شاهدان من المسلمين على أنه جبن صنع بمنفحة شاة مذبوحة أكلته..
فقال: وما يمنعك من أن تأتي الولاة، وتشهد مجالسهم؟!.

فقال: إن في أبوابكم كثيراً من طلاب الحاجات، فادعوهم إليكم.. واقضوا
حوائجهم لديكم.. واتركوا من لا حاجة له عندكم.

رفعت أقوال عامر بن عبد الله إلى أمير المؤمنين "عثمان بن عفان"، فلم يجد
فيها نبذاً للطاعة.. أو خروجاً على السنة والجماعة.. غير أن ذلك لم يطفئ نار
الشر.. وكثر القيل والقال حول عامر بن عبد الله.. وكادت تكون فتنة بين أنصار
الرجل وخصومه..

فأمر عثمان رضي الله عنه بتسييره^(٣) إلى بلاد الشام، واتخاذها دار إقامة له..
وأوصى واليه على الشام "معاوية بن أبي سفيان" أن يحسن استقباله، وأن
يرعى حرمة.

وفي اليوم الذي عزم فيه عامر بن عبد الله على الرحيل عن "البصرة" خرج
خلق كثير من إخوانه وتلاميذه، لوداعه.. وشيعوه^(٤) حتى بلغوا معه ظاهر
"المريد"^(٥).. وهناك قال لهم: إني داع فأمنوا على دعائي.. فاشرأبت^(٦) إليه أعناق
الناس، وسكنت حركتهم، وتعلقت به عيونهم.

فرفع يديه وقال: اللهم من وشى بي وكذب علي، وكان سبباً في إخراجي من
بلدي، والتفريق بيني وبين صحبي.. اللهم إني صفحت عنه فاصفح عنه.. وهبه
العافية في دينه ودنياه.. وتعمدني وإياه وسائر المسلمين برحمتك وعفوك
وإحسانك يا أرحم الراحمين.

ثم وجه مطيته^(٧) نحو ديار الشام، ومضى لسبيله..

قضى عامر بن عبد الله بقية حياته في بلاد الشام واختار "بيت المقدس" داراً

(١) المنفحة: مادة تستخرج من بطن الجدى الصغير وتوضع في الحليب فيصير جبناً.

(٢) غير مذكاة: غير مذبوحة.

(٣) أمر بتسييره: أمر بترحيله.

(٤) شيعوه: خرجوا معه لوداعه.

(٥) المرید: محلة في ظاهر البصرة.

(٦) اشرأبت إليه الأعناق: امتدت إليه الأعناق لتراه.

(٧) مطيته: راحلته.

لإقامته.. ونال من بر أمير الشام "معاوية بن أبي سفيان" وإجلاله وتكريمه ما هو جدير به.

فلما مرض مرض الموت دخل عليه أصحابه، فوجدوه يبكي.

فقالوا: ما يبكيك، وقد كنت.. وكنت^(١)؟!..

فقال: والله ما أبكي حرصاً على الدنيا.. أو جزعاً^(٢) من الموت.

وإنما أبكي لطول السفر وقلة الزاد.

ولقد أمسيت بين صعود وهبوط.. إما إلى الجنة.. وإما إلى النار.. فلا أدري إلى أيهما أصير.. ثم لفظ أنفاسه، ولسانه رطب بذكر الله..

وهناك.. هناك.. في أولى القبليتين^(٣).. وثالث الحرمين^(٤).. ومسرى رسول الله ﷺ.. ثوى^(٥) عامر بن عبد الله التميمي..

نور الله لعامر في قبره.. ونضر في جنات الخلد وجهه، فقد قال عنه علقمة ابن مرثد: "انتهى الزهد إلى ثمانية في مقدمتهم عامر بن عبد الله التميمي".

* * *

(١) وقد كنت وكنت: إشارة إلى ما كان عليه من التقى والصلاح.

(٢) جزعاً: خوفاً.

(٣) أولى القبليتين: كناية عن بيت المقدس، لأن المسلمين كانوا يستقبلونه في الصلاة قبل أن يؤمروا بالتوجه إلى الكعبة المعظمة.

(٤) ثالث الحرمين: كناية عن بيت المقدس أيضاً.

(٥) ثوى: أقام في المكان.

عامر بن شرحبيل الشعبي - رضى الله عنه -

ولد عامر الشعبي فى "الكوفة" وفيها نشأ وهذا فى خلافة الفاروق رضوان الله عليه لكن المدينة المنورة كانت مهوى^(١) فواده ومطمح نفسه، فكان يؤمها^(٢) من حين لآخر ليلقى صحابة رسول الله ﷺ، وليأخذ عنهم، كما كان الصحابة الكرام يؤمون "الكوفة" ليتخذوها منطلقاً للجهاد فى سبيل الله، أو داراً لإقامتهم.

فأتيح له أن يلقى نحواً من خمسمائة من الصحابة الكرام، وأن يروى عن عدد كبير من جلتهم من أمثال: على بن أبى طالب، وسعد بن أبى وقاص، وزيد ابن ثابت.. وعبادة بن الصامت، وأبى موسى الأشعري، وأبى سعيد الخدرى.. والنعمان بن بشير، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس.. وعدى بن حاتم، وأبى هريرة، وعائشة أم المؤمنين، وغيرهم وغيرهم.

وقد كان الشعبي فتى متوقد الذكاء، يقظ الفؤاد، مرهف الذهن^(٣)، دقيق الفهم، آية فى قوة الحافظة والذاكرة..

فقد روى عنه أنه قال:

ما كتبت سوداء فى بيضاء^(٤) قط، ولا حدثنى رجل بحديث إلا حفظته، ولا سمعت من امرئ كلاماً ثم أحببت أن يعيده علىّ.

وقد كان الفتى مولعاً بالعلم، شغوفاً^(٥) بالمعرفة، يبذل فى سبيلهما النفس والنفس، ويستسهل من أجلهما المصاعب.

وقد بلغ من علمه أنه كان يقول:

أقل شىء تعلمته الشعر.. ولو شئت لأنشدتكم منه شهراً دون أن أعيد شيئاً مما أنشدتته.

وكانت تعقد له حلقة فى جامع "الكوفة"، فيلتف الناس حوله زمراً زمراً، وأصحاب رسول الله ﷺ أحياء يروحون ويغدون بين أظهر الناس.

(٢) يؤمها: يقصدها ويمضى إليها.

(٤) ما كتبت سوداء فى بيضاء: ما سجلت كلاماً فى ورق.

(١) مهوى فواده: مشتبه نفسه.

(٣) مرهف الذهن: دقيق الذهن.

(٥) شغوفاً بالمعرفة: محباً للمعرفة مولعاً بها.

بل إن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما سمعه ذات مرة يقص على الناس أخبار المغازي^(١) بخفاياها ودقائقها، فأرهمف إليه سمعه وقال:

لقد شهدت بعض ما يقصه بعيني وسمعته بأذني، ومع ذلك فهو أروى^(٢) له مني.

وشواهد سعة علم الشعبي وحضور ذهنه، غزيرة وفيرة.

من ذلك ما رواه عن نفسه قال:

أتاني رجلان يتفاخران، أحدهما من بني "عامر"، والآخر من بني "أسد"، وقد غلب العامري صاحبه وعلا عليه.. وأخذ من ثوبه وجعل يجره نحوى جراً، والأسدي مخذول أمامه يقول له:

دعني دعني.

والعامري يقول له:

والله لا أدعك حتى يحكم الشعبي لي عليك.. فالتفت إلى العامري وقلت له:

دع صاحبك حتى أحكم بينكما.

ثم نظرت إلى الأسدي وقلت: ما لي أراك تتخاذل له^(٣)؟.

ولقد كانت لكم مفاخر ست لم تكن لأحد من العرب:

أولها: أنه كانت منكم امرأة خطبها سيد الخلق محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فزوجه الله إياها من فوق سبع سماوات.. وكان السفير بينهما "جبريل" عليه السلام.. إنها أم المؤمنين زينب بنت جحش.

فكانت هذه المأثرة^(٤) لقومك، ولم تكن لأحد من العرب غيركم.

وثانيها: أنه كان منكم رجل من أهل الجنة يمشى على الأرض، هو "عكاشة بن محصن"^(٥).

وكانت هذه لكم يا بني "أسد" ولم تكن لسواكم من الناس.

(٢) أروى مني: أحسن رواية مني.

(٤) المأثرة: المكرمة المتوارثة، والفعل الحميد.

(٥) عكاشة بن محصن: صحابي شهيد المشاهد كلها، واستشهد في حرب الردة.

(١) المغازي: الغزوات الإسلامية.

(٣) تتخاذل له: تضعف أمامه وتقلن.

وثالثها: أن أول لواء عقد في الإسلام كان لرجل منكم، هو عبد الله بن جحش^(١).
ورابعها: أن أول مغنم قسم في الإسلام كان مغنمه.
 وخامسها: أن أول من بايع بيعة الرضوان^(٢) كان منكم، فقد جاء صاحبكم
أبو سنان بن وهب إلى رسول الله ﷺ وقال:
يا رسول الله ﷺ، ابسط يدك أبايعك.

قال ﷺ: (على ماذا؟).

قال: على ما في نفسك.

قال ﷺ: (وما في نفسي؟!).

قال: فتح، أو شهادة؟.

قال: (نعم)، فبايعه..

فجعل الناس يبايعون على بيعة أبي سنان.

وسادسها: أن قومك بنى "أسد" كانوا سبع المهاجرين يوم "بدر". فبهت
العامري وسكت.

ولاريب في أن الشعبي أراد أن ينصر الضعيف المغلوب على القوى الغالب.

ولو كان العامري هو المخذول، لذكر له من مآثر قومه ما لم يحط به خيراً.

ولما آلت^(٣) الخلافة إلى عبد الملك بن مروان، كتب إلى الحجاج عامله^(٤) على
"العراق":

أن ابعث إلى رجلاً يصلح للدين والدنيا، أتخذه سميراً وجليساً..

فبعث إليه بالشعبي، فجعله من خاصته^(٥)، وأخذ يفرع إلى علمه في
المعضلات^(٦)، ويعول على رأيه^(٧) في الملمات، ويبعثه سفيراً بينه وبين الملوك.

(١) عبد الله بن جحش: صحابي من أمراء السرايا، وهو صهر رسول الله ﷺ..

(٢) بيعة الرضوان: كانت في آخر سنة ست للهجرة.

(٣) آلت الخلافة إلى فلان: صارت إليه.

(٤) عامله: واليه.

(٥) خاصة الخليفة: المقربون إليه.

(٦) يفرع إلى علمه في المعضلات: يلجأ إلى علمه في الأمور الصعبة.

(٧) يعول على رأيه: يعتمد على فكره.

ولقد بلغ الشعبي في العلم منزلة جعلته رابع ثلاثة في عصره.

فقد كان الزهري يقول: العلماء أربعة.. سعيد بن المسيب في المدينة، وعامر الشعبي في الكوفة، والحسن البصري في البصرة، ومكحول في الشام.

لكن الشعبي كان - لتواضعه - يخل إذا خلع^(١) عليه أحد لقب "العالم".. فقد خاطبه أحدهم قائلاً:

أجبنى أيها الفقيه العالم.

فقال: ويحك^(٢).. لا تطرنا^(٣) بما ليس فينا.. الفقيه من تورع عن محارم الله، والعالم من خشى الله، وأين نحن من ذلك!؟

ولقد سأله آخر عن مسألة، فأجاب:

قال فيها عمر بن الخطاب كذا... وقال فيها علي بن أبي طالب كذا... فقال له السائل: وأنت ماذا تقول يا أبا عمرو؟

فابتسم في استحياء وقال:

وما تصنع بقولي بعد أن سمعت مقالة عمر وعلى.

ولقد أوتى الشعبي من بلاغة الكلام، وحسن التصرف فيه ما لم يؤته إلا القلة النادرة من الفصحاء الأبيناء^(٤)..

من ذلك أنه كلم أمير "العراقيين" عمر بن هبيرة الفزازي في جماعة حبسهم فقال: أيها الأمير..

إن كنت حبستهم بالباطل، فالحق يخرجهم.. وإن كنت حبستهم بالحق، فالعفو يسعهم.

فأعجب بقوله، وأطلقهم كرامة له.

وعلى الرغم من كمال مروءة الشعبي وعلو منزلته في الدين والعلم، فقد كان عذب الروح حلو المفاكهة، لا يفوت النكتة إذا لاحت له.

(١) خلع عليه: ألقى عليه. (٢) ويحك: كلمة ترحم وتوجع، والمعنى: أترحم عليك وأتوجع لك.

(٣) لا تطرنا: لا تتبالغ في مدحنا وإكبارنا.

(٤) الأبيناء: الذين يبينون ما يقولون بأوضح ما يكون.

فقد دخل عليه رجل وهو جالس مع امرأته، فقال:
أيكما الشعبي؟.

فقال: هذه، وأشار إلى امرأته.
وسأله آخر:

ماذا كانت تسمى زوجة إبليس؟.
فقال: ذلك عرس لم نشهده.

وبعد، فقد عمر الشعبي حتى زاد على الثمانين. فلما لبي نداء ربه، ونعى إلى
الحسن البصرى قال:

"يرحمه الله فلقد كان واسع العلم.. عظيم الحلم.. وإنه من الإسلام بمكان".

قال مكحول: ما رأيت أعلم من الشعبي، وقال أبو حصين ما رأيت أحداً قط
أفقه من الشعبي، وقال ابن سيرين لأبي بكر الهذلي: ألزم الشعبي فلقد رأيتك
يستفتى والصحابة متوافرون، وروى عن الشعبي أنه قال إنا لسنا بالفقهاء ولكننا
سمعنا الحديث فروينا، الفقيه: من إذا علم عمل. وكان الشعبي يكره القياس.
توفي سنة ١٠٤هـ .

* * *

سعيد بن المسيب المخزومي - رضى الله عنه -

ولد سعيد بن المسيب لسنتين مضتا من خلافة عمر وسمع من كبار الصحابة،
وكان واسع العلم وافر الحرمة متين الديانة قوالا بالحق فقيه النفس.

كان سعيد من أشد ما استأثر^(١) باهتمامه في المدينة المنورة حلقات العلم التي
كانت تعمر المسجد النبوى الشريف.

ويتألق فيها العلماء الأفذاذ من كبار التابعين كما تتألق النجوم الزهر^(٢) في كبد
السماء.. فهذه حلقة عروة بن الزبير^(٣).. وتلك حلقة سعيد بن المسيب.. وهناك
حلقة عبد الله بن عتبة^(٤).

(٢) الزهر: المتألقة.

(٤) عبد الله بن عتبة: أحد كبار التابعين.

(١) استأثر: سيطر واستبد.

(٣) عروة بن الزبير: انظره ص ٣٨.

وفى ذات يوم صحا الخليفة من قبلولته^(١) فى وقت كان لا يصحو فيه عادة، فنادى حاجبه وقال: يا ميسرة.

قال: لبيك يا أمير المؤمنين.

قال: امض إلى مسجد الرسول ﷺ، وادع لنا أحد العلماء ليحدثنا..

مضى ميسرة إلى المسجد النبوى الشريف، وأجال نظره فيه فلم ير غير حلقة واحدة توسطها شيخ زاد على الستين من عمره فيه بساطة العلماء.. وعليه هيبتهم ووقارهم.

فوقف غير بعيد من الحلقة، وأشار للشيخ بإصبعه.. فلم يلتفت إليه الشيخ، ولم يأبه له^(٢).

فاقترب منه وقال: ألم تر أنى أسير إليك!؟

قال: إلى أنا!؟!

قال: نعم..

قال: وما حاجتك؟

قال: استيقظ أمير المؤمنين وقال: امض إلى المسجد وانظر هل ترى أحداً من حدثائى^(٣)، فأنتى به.

فقال له الشيخ: ما أنا من حدثائه.

فقال له ميسرة: ولكنه يبغى محدثاً يحدثه.

فقال الشيخ: إن من يبغى شيئاً يأتى إليه.. وإن فى حلقة المسجد متسعاً له إذا كان راغباً فى ذلك.

والحديث يؤتى إليه، ولكنه لا يأتى..

فعاد الحاجب أدراجه وقال للخليفة: ما وجدت أحداً فى المسجد غير شيخ أشرت إليه فلم يقم، فدنوت منه وقلت: إن أمير المؤمنين استيقظ فى هذا الوقت وقال لى: انظر هل ترى أحداً من حدثائى فى المسجد فادعه لى..

(٢) لم يأبه له: لم يلتفت إليه ولم يهتم به.

(١) القبولة: نومة الضحى.

(٣) حدثائى: الذين يحدثوننى.

فقال لي في هدوء وحزم: إنني لست من حدائه.. وإن في حلقة المسجد متسعاً له إذا كان راغباً في الحديث.

فتنهده^(١) عبد الملك بن مروان.. وهب قائماً، واتجه إلى داخل المنزل وهو يقول:

ذلك سعيد بن المسيب.. ليتك لم تأتته، ولم تكلمه.. فلما ابتعد عن المجلس وصار في الداخل، التفت أصغر أولاد عبد الملك إلى أخ له أكبر منه وقال:

من هذا الذي يمتنع^(٢) علي أمير المؤمنين، ويستكبر على المثل^(٣) بين يديه، وحضور مجلسه.. وقد دانت^(٤) له الدنيا، وخضعت لهيئته، ملوك "الروم".

فقال الأخ الأكبر: ذاك الذي خطب أمير المؤمنين بنته لأخيك الوليد، فأبى أن يزوجها منه.

فقال الأخ الأصغر: أبى أن يزوجها من الوليد بن عبد الملك؟!..!

وهل كان يروم لها بعلاً^(٥) أسمى^(٦) من ولي عهد أمير المؤمنين؟!... وخليفة المسلمين من بعده.

فسكت الأخ الأكبر ولم يجبه بشيء..

فقال الأخ الصغير: إذا كان قد ضن بابنته علي ولي عهد أمير المؤمنين، فهل وجد لها الكفء^(٧) الذي يليق بها؟..

أم إنه حال دونها ودون الزواج كما يفعل بعض الناس.. وتركها قعيدة بيت^(٨). فقال له أخوه الأكبر:

الحق أنني لا أعرف شيئاً من خبرها، وخبره معها.. فالتفت إليهما أحد الجلوس من أبناء المدينة وقال:

إذا أذن لي الأمير قصصت عليه خبرها كله.. فقد تزوجت فتى من فتيان حينا يقال له: "أبو وداعة".

(١) تنهده: أخرج نفسه بعد مده حزناً وألماً.

(٢) يمتنع: خضعت.

(٣) المثل: المثيل والتظير.

(٤) دانت: يتعالى.

(٥) بعلاً: زوجاً.

(٦) أسمى: الوقف.

(٧) أسمى: أعز وأكرم.

(٨) قعيدة بيت: ملازمة للبيت.

وهو جارنا بيت بيت^(١).. ولزواجه منها قصة طريفة رواها لي بنفسه.

فقال له الأخوان: هاتها..

فقال الرجل: حدثني أبو وداعة قال:

كنت - كما تعلم - أأزم مسجد رسول الله ﷺ طلباً للعلم.

وكنت أداوم على حلقة سعيد بن المسيب، وأزاحم الناس عليها بالمناكب.. فتغيبت عن حلقة الشيخ أياماً، فتفقدني، وظن أن بي مرضاً، أو عرض لي عارض.. فسأل عني من حوله، فلم يجد عند أحد منهم خبراً.

فلما عدت إليه بعد أيام حياني، ورحب بي وقال:

أين كنت يا أبا وداعة؟.

فقلت: توفيت زوجتي، فاشتغلت بأمرها.

فقال: هلا أخبرتنا يا أبا وداعة فنواسيك^(٢)، ونشهد جنازتها معك، ونعينك على ما أنت فيه.

فقلت: جزاك الله خيراً.. وهممت أن أقوم.. فاستبقاني حتى انصرف جميع من كان في المجلس، ثم قال لي:

أما فكرت في استحداث زوجة^(٣) لك يا أبا وداعة؟.

فقلت: يرحمك الله.. ومن يزوجني ابنته وأنا شاب نشأ يتيماً، وعاش فقيراً فأنا لا أملك غير درهمين، أو ثلاثة دراهم.

فقال: أنا أزوجك ابنتي.

فانعقد^(٤) لساني وقلت: أنت؟!.. أتزوجني ابنتك بعد أن عرفت من أمرى ما عرفت؟!.

فقال: نعم.. فنحن إذا جاعنا من نرضى دينه وخلقه زوجناه، وأنت عندنا مرضى الدين والخلق.. ثم التفت إلي من كان قريباً منا، وناداهم.

(١) جارنا بيت بيت: ملاصق لنا.

(٢) نواسيك: نعاونك.

(٣) استحداث زوجة لك: تجديد زواجك.

(٤) انعقد لساني: ارتبط لساني وعجزت عن الإفصاح.

فلما أقبلوا عليه، وصاروا عنده، حمد الله عز وجل وأثنى عليه، وصلى على نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه.

وعقد لي على ابنته.. وجعل مهرها درهمين اثنين.. ففقت وأنا لا أدرى ما أقول من الدهشة والفرح.

ثم قصدت بيتي، وكنت يومئذ صائماً، فنسيت صومي وجعلت أقول: ويحك^(١) يا أبا وداعة.. ما الذي صنعت بنفسك؟!.. ممن تستدين؟!.. وممن تطلب المال؟!.. وظللت على حالي هذه حتى أذن للمغرب.. فأديت المكتوبة^(٢)، وجلست إلى فطوري، وكان خبزاً، وزيتاً.. فما أن تناولت منه لقمة أو لقمتين حتى سمعت الباب يقرع.

فقلت: من الطارق؟

فقال: سعيد.. فوالله لقد مر بخاطري كل إنسان اسمه سعيد أعرفه إلا سعيد ابن المسيب.

ذلك لأنه لم ير منذ أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد.

ففتحت الباب، فإذا بي أمام سعيد بن المسيب.. فظننت أنه قد بدا له^(٣) في أمر زواجي من ابنته شيء..

وقلت له: أبا محمد؟!.. هلا أرسلت إلي فأتيك.

فقال: بل أنت أحق بأن آتي إليك اليوم.

فقلت: تفضل علي..

فقال: كلا، وإنما جئت لأمر..

فقلت: وما هو يرحمك الله؟

فقال: إن ابنتي أصبحت زوجة لك بشرع الله منذ الغداة^(٤)، وأنا أعلم أنه ليس معك أحد يؤنس وحشتك، فكرهت أن تبيت أنت في مكان وزوجتك في مكان آخر، فجئتك بها.

(٢) المكتوبة: المفروضة.

(٤) الغداة: الضحى.

(١) ويح: كلمة ترحم وتوجع.

(٣) بدا له شيء: ظهر له ما غير رأيه.

فقلت: ويحي.. جئتي بها!؟.

فقال: نعم.. فنظرت، فإذا هي قائمة بطولها.

فالتفت إليها وقال: أدخلي إلى بيت زوجك يا بنتي على اسم الله، وبركته.. فلما أرادت أن تخطو، تعثرت^(١) بملاءتها^(٢) من الحياء حتى كادت تسقط على الأرض.

أما أنا فقد وقفت أمامها مشدوهاً^(٣) لا أدري ما أقول.. ثم إنني بادرت فسبقتها إلى القصعة^(٤) التي فيها الخبز والزيت، فنجيتها من ضوء السراج حتى لا تراها.

ثم صعدت إلى السطح وناديت الجيران، فأقبلوا على وقالوا:

ما شأنك؟.

فقلت: عقد لي سعيد بن المسيب على ابنته اليوم في المسجد.. وقد جاءني بها الآن على غفلة.. فتعالوا أنسوها^(٥) حتى أدعو أمي، فهي بعيدة الدار.

فقالت عجوز منهن: ويحك أتدري ما تقول؟!.. أزوجك سعيد بن المسيب ابنته.. وحملها لك إلى البيت بنفسه!؟.

وهو الذي ضمن بها على الوليد بن عبد الملك!!.

فقلت: نعم.. وماهي ذي عندي في بيتي، فهلما^(٦) إليها، وانظروها.

فتوجه الجيران إلى البيت، وهم لا يكادون يصدقونني، ورحبوا بها، وأنسوا وحشتها..

وما هو إلا قليل حتى جاءت أمي، فلما رأتها التفتت إلى وقالت:

وجهي من وجهك حرام^(٧) إن لم تتركها لي حتى أصلح شأنها.. ثم أرفها^(٨) إليك كما تزف كرائم النساء.

فقلت: أنت وما تريدين.. فضمنتها^(٩) إليها ثلاثة أيام، ثم زفتها إلى.

فإذا هي من أبهى نساء المدينة جمالاً.. وأحفظ الناس لكتاب الله عز وجل..

(٢) بملاءتها: بثوبها.

(٤) القصعة: الصفحة التي يوضع فيها الطعام.

(٦) هلما: بادروا.

(٨) أرفها إليك: أهديتها لك.

(١) تعثرت: كبت حتى كادت تقع.

(٣) مشدوهاً: ذاهلاً حائراً.

(٥) أنسوها: سلوها وأزيلوا وحشتها.

(٧) وجهي من وجهك حرام: اخلصمك ولا أنظر إليك.

(٩) ضمنتها إليها: استصحبتها.

وأرواهم لحديث الرسول ﷺ.. وأعرف النساء بحقوق الزوج.

فمكثت معها أياماً لا يزورني أبوها أو أحد من أهلها.

ثم إنني أتيت حلقة الشيخ في المسجد، فسلمت عليه، فرد علي السلام، ولم يكلمني.

فلما انفض^(١) المجلس، ولم يبق غيري قال:

ما حال زوجتك يا أبا وداعة؟.

فقلت: هي علي ما يحب الصديق ويكره العدو..

فقال: الحمد لله.

فلما عدت إلى بيتي، وجدته قد وجه إلينا مبلغاً وفيراً من المال لنستعين به على حياتنا.

فقال ابن عبد الملك: عجيب أمر هذا الرجل.

فقال له رجل من أهل المدينة: وما وجه العجب فيه أيها الأمير؟.. إنه امرؤ

جعل دنياه مطية^(٢) لأخراه.. واشترى لنفسه ولأهله الباقية بالفانية^(٣).. فوالله إنه

ما ضن^(٤) علي ابن أمير المؤمنين بابنته.. ولا رآه غير كفاء لها، وإنما خاف

عليها فتنة الدنيا.. ولقد سأله بعض أصحابه فقال: أترد خطبة أمير المؤمنين،

وتزوج ابنتك من رجل من عامة المسلمين!؟.

فقال: إن ابنتي أمانة في عنقي، وقد تحريت^(٥) فيما صنعته لها صلاح أمرها.

فقبل له: وكيف!؟.

فقال: ما شأنكم بها إذا انتقلت إلى قصور بني "أمية".. وتقلبت بين رياشها^(٦)

وأثائها^(٧).. وقام الخدم والحشم والجواري بين يديها، وعن يمينها، وعن شمالها..

ثم وجدت نفسها بعد ذلك زوجة للخليفة؟.

(٢) مطية: مركباً ووسيلة.

(٤) ما ضن: ما بخل.

(٦) الرياش: ما كان فاخراً من اللباس ونحوه.

(١) انفض المجلس: غادر الحضور المجلس.

(٣) الباقية بالفانية: الآخرة بالدنيا.

(٥) تحريت: توخيت وبحثت.

(٧) الأثاث: متاع البيت.

أين يصبح دينها يومئذ ؟.

فقال رجل من أهل الشام: يبدو أن صاحبكم طراز فريد^(١) من الناس.

فقال الرجل المدني: والله ما عدوت^(٢) الحق أبداً.. فهو صوام نهار.. قوام ليل.. حج نحواً من أربعين حجة.. وما فاتته التكبيرة الأولى في مسجد الرسول ﷺ منذ أربعين عاماً.

ولا عرف عنه أنه نظر إلى قفا رجل في الصلاة خلال ذلك أبداً، لمحاظته على الصف الأول.

وقد كان في وسعه أن يتزوج بمن يشاء من نساء قريش، فأثر^(٣) بنت أبي هريرة^(٤) رضي الله عنه على سائر النساء.

وذلك لمنزلته من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.. وسعة روايته لحديثه.. وشدة رغبته في الأخذ عنه.

ولقد نذر نفسه للعلم منذ نعومة أظفاره.. فدخل على أزواج النبي ﷺ، وتأثر^(٥) بهن.. وتلمذ على يدى زيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر^(٦).. وسمع من عثمان، وعلى، وصهيب^(٧)، وغيرهم من صحابة النبي الكريم ﷺ.

وتخلق بأخلاقهم.. وتحلى بشمانلهم^(٨).. ولقد كانت له كلمة يرددها على الدوام حتى غدت وكأنها شعار له، وهي قوله:

ما أعزت العباد نفسها بمثل طاعة الله.. ولا أهانت نفسها بمثل معصيته.

رحم الله العالم الفقيه سعيد بن المسيب الذي توفي سنة ٩٤ هـ كما قيل.. فقد قال عنه ابن عمر: سعيد بن المسيب أحد المفتين وقال قتادة: ما رأيت أحد أعلم من سعيد بن المسيب، وقال علي بن المدني لا أعلم في التابعين أوسع علماً من

(١) طراز فريد: نوع نادر.

(٢) ما عدوت الحق: ما بعدت عن الحق ولا خرجت عليه.

(٣) أثر: اختار وفضل.

(٤) أبو هريرة: كتاب "صور من حياة الصحابة" د. عبد الرحمن رأفت الباشا.

(٥) تأثر بهن: انتفع منهن ومثلن مسلكهن.

(٦) عبد الله بن عمر: في كتاب "صور من حياة الصحابة" د. عبد الرحمن رأفت الباشا.

(٧) انظرهم في كتب "صور من حياة الصحابة" د. عبد الرحمن رأفت الباشا.

(٨) تحلى بشمانلهم: استمسك بأخلاقهم وصفاتهم وازدان بها.

سعيد هو عندي أجل التابعين وكان لا يقبل جوائز السلطان. وجل روايته المسند عن أبي هريرة. وكان الحسن البصري إذا أشكل عليه شيء كتب إلى سعيد ابن المسيب يسأله.

* * *

شرح بن العارث الكندي - رضى الله عنه -

هو رجل "يمنى" الموطن، "كندى"^(١) العشيبة، قضى شطراً غير يسير من حياته فى الجاهلية.

فلما أشرفت الجزيرة العربية بنور الهداية، ونفذت أشعة الإسلام إلى أرض "اليمن"، كان شريح من أوائل المؤمنين بالله ورسوله، المستجيبين لدعوة الهدى والحق.

وكان عارفو فضله ومقدرو شمائله^(٢) ومزاياه، بأسون عليه أشد الأسى، ويتمنون أنه لو أتى^(٣) له أن يفد على المدينة مبكراً ليلقى رسول الله ﷺ قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى، ولينهل من موارده^(٤) الصافية المصفاة مباشرة لا بالوساطة.. ولكى يحظى بشرف الصحبة بعد أن حظى بنعمة الإيمان.. وبذلك يجمع الخير من أطرافه... ولكن ما قدر كان.

ولم يكن الفاروق رضوان الله عليه، متعجلاً حين عهد بمنصب من مناصب القضاء الكبرى لرجل من التابعين، على الرغم من أن سماء الإسلام كانت يومئذ ما تزال تتألق بالنجوم الزهر^(٥) من صحابة رسول الله ﷺ... فقد أثبتت الأيام صدق فراسة^(٦) عمر، وصواب تدبيره.

إذ ظل شريح يقضى بين المسلمين نحواً من ستين عاماً متتابعة من غير انقطاع... وقد تعاقب على إقراره فى منصبه كل من عمر، وعثمان، وعلى، ومعاوية رضوان الله عليهم أجمعين.

(١) كندى العشيبة: منسوب إلى كندة (بكر الكاف وسكون النون) وهى قبيلة عربية عظيمة ظهر منها كثير من المحدثين والعلماء.

(٢) شمائله أخلاقه ومزاياه.

(٣) أتى له: قدر له.

(٤) ينهل من موارده: يرتوى من ينابيعه.

(٥) النجوم الزهر: النجوم المضيئة المتلألئة.

(٦) الفراسة: دقة التوقع.

كما أقره على ذلك من جاء بعد معاوية من خلفاء بني "أمية"، حتى طلب الرجل إعفاه من منصبه إبان^(١) ولاية الحجاج.

وكان قد بلغ السابعة بعد المائة من حياته المديدة الرشيدة الحافلة بالمفاخر والمآثر^(٢).

ولقد ازدان تاريخ القضاء في الإسلام ببدايع من مواقف شريح، وزها بروائع من انصياح^(٣) خاصة المسلمين وعامتهم لشرع الله الذي يمثله شريح، ونزولهم عند أحكامه... وامتألت بطون الكتب بطرائف هذا الرجل الفذ وأخباره، وأقواله وأفعاله.

رضى الله عن الفاروق، فقد زان مفروق^(٤) القضاء في الإسلام بلؤلؤة كريمة الأعراق... صافية الجوهر... رائعة المجتلى... وحباً^(٥) المسلمين مصباحاً منيراً، ما زالوا حتى اليوم يستضيئون بسنا فقهه لشرع الله... ويهتدون بنور فهمه لسنة رسول الله... ويباهون به الأمم يوم القيامة.

ورحم الله شريحاً القاضى، فقد روى عن عمر وعلي وابن مسعود وتوفى سنة ٧٨هـ بعد أن أقام العدل بين الناس ستين عاماً.

* * *

(١) إبان: حين.

(٢) المآثر: الأفعال الحميدة ذوات الآثار الجليلة.

(٣) الانصياح: الاتباع.

(٤) المفروق: مفرد وجمعه مفارق... ومفارق القضاء: وجوهه الواضحة.

(٥) حباً المسلمين: منح المسلمين.

محمد بن سيرين - رضى الله عنه -

ولد "محمد بن سيرين" لسنتين بقيتا من خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه.

وربى فى بيت يتضوع^(١) الورع والتقوى من كل ركن من أركانه..

ولما أيفع^(٢) الغلام اللبيب، وجد مسجد رسول الله ﷺ يزخر^(٣) بالبقية الباقية من كرام الصحابة وكبار التابعين من أمثال زيد بن ثابت، وأنس بن مالك، وعمران ابن الحصين.. وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وأبى هريرة.

فأقبل عليهم إقبال الظامئ على المورد العذب.. ونهل من علمهم بكتاب الله، وفقههم بدين الله، وروايتهم لحديث رسول الله ﷺ ما أفعم^(٤) عقله حكمة وعلماء، وأترع نفسه صلاحاً وهدياً وروى عن موله أنس وعن أبى هريرة وابن عباس وابن عمر وغيرهم.. ثم انتقل وأسرته إلى "البصرة" واتخذوها موطناً.

كانت "البصرة" يومئذ مدينة شابة بكرأ.. فقد اختطها المسلمون فى أواخر خلافة الفاروق رضى الله عنه.

وكانت تمثل جل^(٥) خصائص الأمة الإسلامية فى ذلك العصر.

فهى قاعدة عسكرية لجيوش المسلمين الغازية فى سبيل الله.. وهى مركز من مراكز التعليم والتوجيه للداخلين فى دين الله من أهل "العراق" و"فارس".. وهى صورة للمجتمع الإسلامى الجاد الذى يعمل لندياه كأنه يعيش أبداً، ويعمل لأخراه كأنه يموت غداً.

سلك محمد بن سيرين فى حياته الجديدة فى "البصرة" طريقين متوازيين متوازنين:

فجعل شطراً من يومه للعلم والعبادة.. وشطراً آخر للكسب والتجارة.

(٢) أيفع: ترعرع وقارب البلوغ.

(٤) أفعم: ملأ.

(١) يتضوع: ينتشر انتشار المسك.

(٣) يزخر: يمتلئ.

(٥) جل: أكثر.

فكان إذا انبجج الفجر وأشرقت الدنيا بنور ربها، غدا إلى مسجد "البصرة" يعلم ويتعلم.

حتى إذا ارتفع النهار مضى من المسجد إلى السوق يبيع ويشترى.. فإذا جاء الليل وأرخی على الكون سدوله^(١) صف في محراب بيته، وانحنى على أجزاء القرآن بصلبه، وبكى من خشية الرحمن بدموع عينيه وقلبه.. حتى يشفق عليه أهله وجيرانه الأذنون^(٢) لما يسمعون من نحيبه الذي يقطع نياط القلوب^(٣).

وكان - وهو يطوف بالسوق في النهار للبيع والشراء - لا يفتأ يذكر الناس بالآخرة.. ويبصرهم بالدنيا.. ويرشدهم إلى ما يقربهم إلى الله.. ويفصل فيما يشجر^(٤) بينهم من خلاف.

وكان يطرفهم^(٥) بين الحين والحين بالملحة^(٦) التي تمسح الهم عن نفوسهم المكودة، من غير أن ينقص ذلك من هيئته ووقاره عندهم شيئاً. فقد وهبه الله جل وعز هدياً وسمتاً^(٧)، ومنحه قبولاً وتأثيراً..

فكان الناس إذا رأوه في السوق - وهم غارقون غافلون - انتبهوا، فذكروا الله عز وجل، وهللوا وكبروا..

وكانت سيرته العملية خير مرشد للناس.. فما عرض له أمران في تجارته إلا أخذ بأوتقهما في دينه.. ولو كانت فيه خسارة تصيب دنياه..

وكانت دقة فهمه لأسرار الدين، وصحة نظره إلى ما يحل وما لا يحل تدفعه أحياناً إلى بعض المواقف التي تبدو غريبة لعيون الناس.

وكان مجلس ابن سيرين، مجلس خير وبر وموعظة.. فإذا ذكر عنده رجل بسيئة، بادر فذكره بأحسن ما يعلم من أمره.

بل إنه سمع أحدهم يسب الحجاج^(٨) بعد وفاته، فأقبل عليه وقال: صه، يا بن أخی.. فإن الحجاج مضى إلى ربه..

(١) سدوله: أستاره.

(٢) الأذنون: جيرانه الأقراب الملائقون.

(٣) النياط: جمع مفردة نوط، وهو عرق معلق بالقلب إذا انقطع مات الإنسان.

(٤) فيما يشجر بينهم: فيما يتنازعون فيه.

(٥) يطرفهم: يأتيهم بالحديث المستحسن.

(٦) الملحة: ما لذ من الأحاديث.

(٧) سمت: هيئة أهل الخير.

(٨) الحجاج: هو الحجاج بن يوسف الثقفي أحد ولاة بني أمية العناية الأشداء، أفاض المؤرخون في ذكر بطشه وقسوته وقتله.

وإنك حين تقدم على الله جل وعز، ستجد أن أحقر ذنب ارتكبته في الدنيا أشد على نفسك من أعظم ذنب اجترحه الحجاج.. فلكل منكما يومئذ شأن يغنيه.

واعلم يا بن أخي أن الله جل وعز سوف يقتص من الحجاج لمن ظلمهم كما سيقص للحجاج ممن يظلمونه.. فلا تشغلن نفسك بعد اليوم بسب أحد.

ولقد كانت لمحمد بن سيرين مع ولاة بنى "أمية" مواقف مشهودة صدع^(١) فيها بكلمة الحق، وأخلص النصيح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين.

ولقد شاء الله جل وعز أن يبلى صدق محمد بن سيرين وصبره، فعرضه^(٢) لما يتعرض له المؤمنون من المحن..

من ذلك أنه اشترى ذات مرة زيتاً بأربعين ألفاً مؤجلة^(٣).. فلما فتح أحد زقاق^(٤) الزيت، وجد فيه فأراً ميتاً متفسخاً.

فقال في نفسه: إن الزيت كله كان في المعصرة في مكان واحد، وإن النجاسة ليست خاصة بهذا الزق دون سواه.. وإني إن رددته للبائع بالعيب^(٥) فربما باعه للناس.. ثم أراقه كله.

وقد وقع ذلك في وقت كان يشكو فيه من خسارة كبيرة حلت به.

فركبه الدين، وطالبه صاحب الزيت بماله، فلم يستطع سداده.. فرفع أمره إلى الوالى، فأمر بحبسه حتى يسدد ما عليه.

فلما صار فى السجن وطال مكوثه^(٦) فيه، أشفق عليه السجنان لما علم من أمر دينه، وما رأى من شدة ورعه وطول عبادته، فقال له:

أيها الشيخ، إذا كان الليل فاذهب إلى أهلك وبت معهم.. فإذا أصبحت فعد إلى.. واستمر على ذلك حتى يطلق سراحك.

فقال له: لا والله لا أفعل.

فقال السجنان: ولم، هداك الله !؟.

(٣) مؤجلة: مؤخرة الثمن.

(٢) عرضه للمحنة: جعله هدفاً لها.

(١) صدع: جهر.

(٤) الزقاق: جمع زق، وهو وعاء من جلد يوضع فيه الماء ونحوه من السوائل.

(٦) مكوثه: إقامته.

(٥) بالعيب: بسبب العيب، والرذ بسبب العيب من حقوق المشتري.

فقال له: حتى لا أعاونك على خيانة ولى الأمر.

ولما احتضر أنس بن مالك رضي الله عنه، أوصى بأن يغسله محمد بن سيرين ويصلى عليه، وكان ما يزال سجيناً.

فلما توفي جاء الناس إلى الوالى وأخبروه بوصية صاحب رسول الله وخادمه، واستأذنوه فى أن يخلى سبيل محمد بن سيرين لإنفاذ الوصية فأذن له.

فقال لهم محمد بن سيرين: لا أخرج حتى تستأذنوا صاحب الدين، فإنما حبست بما له على من الحق... فأذن له الدائن أيضاً.

عند ذلك خرج من سجنه فغسل أنساً، وكفنه، وصلى عليه.. ثم رجع إلى السجن كما هو.. ولم يذهب لرؤية أهله.

عمر محمد بن سيرين حتى بلغ السابعة والسبعين.. فلما أتاه اليقين^(١) وجدّه خفيف الحمل من أعباء الدنيا.. كثير الزاد .

رحم الله محمد بن سيرين مولى أنس بن مالك فقد كان فقيها وإماماً غزير العلم، ثقة، علامة فى تعبیر الرؤيا رأساً من الورع.. وقد قال عنه مورق العجلي: ما رأيت أحداً أفقه فى ورعه ولا أروع من فقهه من ابن سيرين.. وقد توفي سنة ١١٠هـ بعد الحسن بمائة يوم.

* * *

(١) اليقين: الموت.

سعيد بن جبير - رضى الله عنه -

هو سعيد بن جبير فتى حبشى فى الأصل، عربى الولاء لم ينقص لونه الأسود وشعره "المفلقل" من قدره وشخصيته وخاصة إنه أدرك منذ نعومة أظفاره قيمة العلم والنقى حتى أصبح من أجل فقهاء العلم فى عصره.

وقد أخذ الفتى سعيد بن جبير العلم عن طائفة من كبار الصحابة من أمثال أبى سعيد الخدرى، وعدى بن حاتم الطائى... وأبى موسى الأشعري، وأبى هريرة الدوسى... وعبد الله بن عمر، وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وعنهم أجمعين.

بيد أن أستاذه الأكبر، ومعلمه الأعظم كان عبد الله بن عباس، حبر أمة محمد، وبحر علمها الزاخر.

لزم سعيد بن جبير عبد الله بن عباس لزوم الظل لصاحبه... فأخذ عنه القرآن وتفسيره، والحديث وغريبه... وتفقه على يديه فى الدين، وتعلم منه التأويل... ودرس عليه اللغة، فتمكن منها أعظم التمكن... حتى غدا وما على ظهر الأرض أحد من أهل زمانه إلا وهو محتاج إلى علمه.

ثم تنقل فى ديار المسلمين بحثاً عن المعرفة فلما اكتمل له ما أراد من العلم، اتخذ "الكوفة" داراً له ومقاماً. وغدا لأهلها معلماً وإماماً.

كان يؤم الناس فى رمضان، فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود... وأخرى بقراءة زيد بن ثابت... وثالثة بقراءة غيرهما، وهكذا.

وكان إذا صلى منفرداً فربما قرأ القرآن كله فى صلاة واحدة، وكان إذا مر بقول الله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يَكْمُنُ * إِذْ الْأَعْتَلُ فِيْ أَعْتَقِهِمْ وَالسَّالِيلُ يَسْحَبُونَ *﴾ فى الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿﴾ [غافر: ٧٠-٧٢]. أو مر بنحوها من آيات الوعد والوعيد، اقتشعر جلده... وتصدع فؤاده... وسالت دموعه... ثم لا يزال يبدأ فيها ويعيد حتى يوشك أن يقضى نحبه.

وقد دأب على شد رحاله إلى البيت الحرام كل عام مرتين... مرة فى رجب محرماً بعمره، وأخرى فى ذى القعدة محرماً بحج.

وقد كان طلاب العلم وشدة الخير والبر والنصح، يتوافدون على "الكوفة" لينهلوا من مناهل سعيد بن جبير الثرية العذبة... ويخترفوا من هديه القويم.

وقد كانت "الكوفة" حين اتخذها سعيد بن جبير دار إقامة له، خاضعة للحجاج ابن يوسف النقفى... إذ كان الحجاج يومئذ والياً على "العراق"، والمشرق، وبلاد ما وراء النهر، وكان يتربع حينئذ على ذروة سطوته وسلطانه... وذلك بعد أن قتل عبد الله بن الزبير، وقضى على حركته.

وأخضع "العراق" لسلطان بنى "أمية"، وأحمد نيران الثورات القائمة هنا وهناك... وأعمل السيف في رقاب العباد... وأشاع الرعب في أرجاء البلاد... حتى امتلأت القلوب رهبة منه وخشية من بطشه.

ثم شاء الله أن يقع صدام بين الحجاج بن يوسف النقفى وبين عبد الرحمن ابن الأشعث أحد كبار قواده.

وأن يتحول الصدام إلى فتنة أكلت الأخضر واليابس... وتركت في جسم المسلمين جراحات غائرة.

اغتنم عبد الرحمن بن الأشعث هذه الفرصة، ودعا الفقهاء والقراء إلى مؤازرته.

فاستجابت له كوكبة من جلة التابعين وأئمة المسلمين، وعلى رأسهم سعيد بن جبير، وعبد الرحمن بن أبي ليلى.. والشعبي، وأبو البختري، وغيرهم، وغيرهم الكثيرون.

ودارت رحى الحرب بين الفريقين، وكان النصر فيها أول الأمر لابن الأشعث ومن معه على الحجاج وجنوده.

ثم بدأت كفة الحجاج ترجح شيئاً فشيئاً.. حتى هزم ابن الأشعث هزيمة منكرة... وفر ناجياً بنفسه. واستسلم جيشه للحجاج وجنوده.

أمر الحجاج مناديه أن ينادى في المقاتلين المهزومين، وأن يدعوهم لتجديد بيعته.

فاستجاب أكثرهم له، وتوارى بعضهم عنه.

وكان بين المتوارين سعيد بن جبير - رضى الله عنه وأرضاه-.

وظل يضرب في أرض الله الواسعة مستخفياً عن الحجاج وعيونه حتى لجأ إلى قرية صغيرة في أراضي مكة.

وبقى على حاله هذه عشر حجج كاملات كانت كافية لأن تطفئ نيران الحجاج المتقدة في قلبه، وأن تزيل ما في نفسه من ضغن عليه.

بيد أنه حدث ما لم يكن يتوقعه أحد... ذلك أنه قدم على مكة وال جديد من ولاية بنى "أمية"... هو "خالد بن عبد الله القسري".

فتوجس أصحاب سعيد بن جبير خيفة منه، لما كانوا يعرفون من سوء سيرته، وتوقعوا الشر على يديه.

فجاء بعضهم إلى سعيد وقالوا له:

إن هذا الرجل قدم مكة، وإنا - والله - لا نأمنه عليك... فاستجب لطلبنا، وأخرج من هذا البلد.

فقال: والله لقد فررت حتى صرت استحي من الله... ولقد عزمت على أن أبقى في مكاني هذا... وليفعل الله بي ما يشاء.

وبالفعل ما أن علم بمكان سعيد بن جبير حتى أرسل إليه سرية من جنوده، وأمرهم أن يسوقوه مقيداً إلى الحجاج في مدينة "واسط"^(١).

فأطبق الجند على بيت الشيخ... وألقوا القيد في يديه على مرأى من بعض أصحابه... وأذنوه^(٢) بالرحيل إلى الحجاج، فتلقاهم هادئ النفس مطمئن القلب.

ثم التفت إلى أصحابه وقال:

ما أراني إلا مقتولاً على يدي ذلك الظالم... ولقد كنت أنا وصاحبان لي في ليلة عبادة، فاستشعرنا حلاوة الدعاء فدعونا الله بما دعونا، وتضرعنا إليه بما شاء أن نتضرع... ثم سألنا الله عز وجل أن يكتب لنا الشهادة، وقد رزقها الله لصاحبي كليهما، وبقيت أنا أنتظرها.

(١) واسط: مدينة واقعة بين البصرة والكوفة، وقد سميت بذلك لأنها تقع في وسطهما، فتبعد عن كل منهما خمسين ميلاً.

(٢) أذنوه: دعوه وأعلموه.

ثم إنه ما كاد ينتهي من كلامه حتى طلعت عليه بنية صغيرة له، فرأته مقيداً والجند يسوقونه، فتشبثت به، وجعلت تبكي وتتشج... فنحاهما عنه برفق، وقال لها: قولى لأملك يا بنية: إن موعدنا الجنة إن شاء الله تعالى... ثم مضى.

بلغ الجند بالإمام الحبر العابد الزاهد، النقى النقى الورع مدينة "واسط"، وأدخلوه على الحجاج.

فلما صار عنده نظر إليه فى حقد وقال: ما اسمك؟

فقال: سعيد بن جبیر.

فقال: بل شقى بن كسير^(١).

فقال: بل كانت أمى أعلم باسمى منك.

فقال: ما تقول فى محمد؟

قال: تعنى محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه؟!.

فقال: نعم.

قال: سيد ولد آدم، النبى المصطفى... خير من بقى من البشر، وخير من مضى... حمل الرسالة، وأدى الأمانة... ونصح لله، وكتابه، ولعامّة المسلمين، وخاصّتهم.

قال: فما تقول فى أبى بكر؟

قال: هو الصديق خليفة رسول الله ﷺ، ذهب حميداً، وعاش سعيداً... ومضى على منهاج النبى ﷺ، لم يغير ولم يبدل.

قال: فما تقول فى عمر؟!.

قال: هو الفاروق الذى فرق الله به بين الحق والباطل... وخيرة الله وخيرة رسوله، ولقد مضى على منهاج صاحبيه... فعاش حميداً، وقتل شهيداً.

قال: فما تقول فى عثمان.

(١) كسير: ضد جبیر.

قال: هو المجهز لجيش العسرة^(١)... الحافر بئر^(٢) رومة... المشتري بيتاً لنفسه في الجنة... صهر رسول الله ﷺ على ابنتيه.

ولقد زوجه النبي بوحي من السماء، وهو المقتول ظلماً.
قال: فما تقول في علي؟!.

قال: ابن عم رسول الله ﷺ، وأول من أسلم من الفتيان... وهو زوج فاطمة البتول^(٣)... وأبو الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة.

قال: فأى خلفاء بني "أمية" أعجب لك؟.

قال: أَرْضَاهُمْ لِحَالِقِهِمْ.

قال: فأيهم أرضى للخالق؟.

قال: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم.

قال: فما تقول في؟.

قال: أنت أعلم بنفسك.

قال: بل أريد علمك أنت.

قال: إذن يسوءك ولا يسرك.

قال: لا بد من أن أسمع منك.

قال: إني لأعلم أنك مخالف لكتاب الله تعالى... تقدم على أمور تريد بها الهيبة، وهي تفحمك في الهلكة... وتدفعك إلى النار دفعا.

قال: أما والله لأقتلنك.

قال: إذن تفسد على دنياي، وأفسد عليك آخرتك.

قال: اختر لنفسك أي قتلة شئت.

(١) جيش العسرة: جيش غزوة تبوك.

(٢) بئر رومة: بئر في عتيق للمدينة المنورة اشتراها عثمان بن عفان بمائة ناقة، وتصدق بها على المسلمين.

(٣) البتول: النقية الطاهرة.

قال: بل اخترها أنت لنفسك يا حجاج... فوالله ما تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة.

قال: أفتريد أن أعفو عنك؟.

قال: إن كان عفو فمن الله تعالى... أما أنت فلا براءة^(١) لك ولا عذر. فاغتاظ الحجاج وقال: السيف والنطع^(٢) يا غلام.

فتبسم سعيد، فقال له الحجاج: وما تبسمك؟!.

قال: عجبت من جراتك على الله وحلم الله عليك.

فقال: اقتله يا غلام.

فاستقبل القبلة وقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ^(٣) السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا^(٤) وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

فقال: احرفوا^(٥) وجهه عن القبلة.

فقال: ﴿فَأَيُّكُمْ تَوَلَّوْا^(٦) قَوْمَ^(٧) وَجْهِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

فقال: كبوه^(٨) على الأرض.

فقال: ﴿مِنَّا خَلَقْنٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنَّا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

فقال: انبجوا عدو الله، فما رأيت رجلاً أدعى^(٩) منه لآيات القرآن... فرفع سعيد كفيه وقال: اللهم لا تسلط الحجاج على أحد بعدى.

لم يمض على مصرع سعيد بن جبير غير خمسة عشر يوماً حتى حم^(١٠) الحجاج، واشتدت عليه وطأة المرض.

(٢) النطع: بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بالقتل.

(٤) حنيفاً: مائلاً إلى الدين القيم.

(٦) تولوا: توجهوا.

(٨) كبوه على الأرض: اقلبوه على الأرض.

(١٠) حم: أصابته الحمى.

(١) لا براءة لك: لا عفو من عندك.

(٣) فطر: خلق وأنشأ.

(٥) احرفوا وجهه: أميلوا وجهه.

(٧) ثم وجه الله: هناك قبلة الله التي ترضاهما.

(٩) أدعى منه: استحضراً منه.

فكان يغفو ساعة ويفيق أخرى.. فإذا غفا غفوة صغيرة، استيقظ مذعوراً وهو يصيح:

هذا سعيد بن جبير أخذ بخناقى... هذا سعيد بن جبير يقول: فيم قتلتنى؟! ثم يبكى ويقول:

مالى ولسعيد بن جبير؟! ردوا عنى سعيد بن جبير... فلما قضى نحبه وورى ترابه، رآه بعضهم فى الحلم فقال له:
ما فعل الله بك فيمن قتلتهم يا حجاج؟
فقال: قتلنى الله بكل امرئ قتلة واحدة... وقتلنى بسعيد بن جبير سبعين قتلة.

* * *

عبد العزيز بن مروان - رضى الله عنه -

هو أبو الأصبع عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن العاص بن أمية القرشى، عاشر أمراء مصر الإسلامية، وخامس أمراء بنى أمية، وأول أمير من قبل بنى مروان، فقد ولاه أبوه مروان بن الحكم مصر، فوصلها فى رجب عام ٦٥ للهجرة.

وكان مروان قد زحف على مصر فى غرة جمادى الأولى عام ٦٥ للهجرة، وبعد صراع مع الزبيريين استتب الأمر لمروان، وولى ابنه عبد العزيز أمر مصر، ولما توفى مروان فى ٢٧ من رمضان عام ٦٥ للهجرة، تولى الخلافة عبد الملك بن مروان، وأقر إمرة أخيه عبد العزيز على مصر.

كان عبد العزيز أقرب أبناء مروان إليه، فقد عاصر الأحداث الأخيرة فى الدولة الإسلامية من أول الفتنة، فكان مع مروان^(١) أبية يوم قتل عثمان، وكان طفلاً صغيراً، ثم خرج معه إلى الشام عندما طردهم ابن الزبير من المدينة، بعد وفاة يزيد عام ٦٣ للهجرة، ودرس عبد العزيز السياسة من يبابيها وأحداثها،

(١) مع أن أخاه عبد الملك ولد قبله عام ٢٦ للهجرة، وولد عبد العزيز بعده.

ودرس الدين من مصبه في المدينة، وروى عن أبي هريرة أحاديث عن رسول الله ﷺ، وقد عده ابن سعد - في طبقاته - في الطبقة الثانية من التابعين. (١)

وعبد العزيز والد خامس الخلفاء الراشدين (عمر)، الذي تولى الخلافة بعد ابن عمه سليمان بن عبد الملك عام ٩٩ للهجرة.

قال ابن سعد: لما أراد عبد العزيز الزواج من أم عاصم بنت عاصم بن عمر ابن الخطاب، قال لقيمه: اجمع لي أربعمئة دينار (٢) من أطيب مالي، فإني أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح. (٣)

* * *

رجاء بن حيوة - رضى الله عنه -

ولد رجاء بن حيوة في "بيسان" من أرض "فلسطين" .. وكانت ولادته في أواخر خلافة عثمان بن عفان أو نحو من ذلك .. وكان ينتمي إلى قبيلة "كندة" العربية. وعلى هذا فرجاء "فلسطيني" الوطن .. عربي الأصل .. "كندی" العشيرة. وقد نشأ الفتى الكندی في طاعة الله منذ حداثة سنه، فأحبه الله وحببه إلى خلقه. وأقبل على طلب العلم منذ نعومة أظفاره فوجد العلم فؤاده غصاً طرياً خالياً، فتمكن منه، واستقر فيه.

وجعل همه الأكبر النهم من كتاب الله، والتزود من حديث رسول الله ﷺ . فاستضاء فكره بنور القرآن .. واستتارت بصيرته بهدى النبوة .. وامتأ صدره بالموعظة والحكمة .. ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً.

وقد أتيج له أن يأخذ عن طائفة كبيرة من جلة الصحابة من أمثال: أبي سعيد الخدرى، وأبي الدرداء، وأبي أمامة، وعبادة بن الصامت .. ومعاوية بن أبي سفيان، وعبد الله بن عمرو بن العاص، والنواس بن سمعان، وغيرهم. وروى عن معاوية وعبد الله بن عمر وجابر وغيرهم.

فكانوا له مصابيح هداية، ومشاعل عرفان.

وقد وضع الفتى المحظوظ لنفسه دستوراً ظل يلتزم به ويردده ما امتدت به الحياة، حيث كان يقول:

ما أحسن الإسلام يزينه الإيمان.. وما أحسن الإيمان يزينه التقى.. وما أحسن التقى يزينه العلم.. وما أحسن العلم يزينه العمل.. وما أحسن العمل يزينه الرفق..
وقد وزر^(١) رجاء بن حيوة لطائفة من خلفاء بني "أمية" ابتداء من عبد الملك ابن مروان، وانتهاء بعمر بن عبد العزيز.

لكن صلته بسليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز فاقت صلاته بمن سبقهما من الخلفاء.

وقد أدناه من قلوب خلفاء بني "أمية" رجاحة في رأيه.. وصدق في لهجته.. وإخلاص في نيته.. وحكمة في معالجته الأمور.. ثم توج ذلك كله بزهده بما في أيديهم من عرض الدنيا مما كان يتزاحم عليه المتزاحمون.

وقد كان اتصاله بخلفاء بني "أمية" من عظيم رحمة الله بهم، وجزيل إكرامه لهم.

فلقد دعاهم إلى الخير، ودلهم على طريقه.. وثناهم^(٢) عن الشر، وأوصد دونهم أبوابه.. وأراهم الحق وزين لهم اتباعه.. وبصرهم بالباطل وكره إليهم إتيانه.. فنصح الله ورسوله ﷺ ولأئمة المسلمين وعامتهم.

ولقد وقعت لرجاء قصة أنارت له طريقه في مخالطة الخلفاء، وحددت له مهمته معهم رواها بنفسه فقال:

إني لواقف مع سليمان^(٣) بن عبد الملك في جموع من الناس، إذ رأيت رجلاً يتجه نحونا وسط الزحام.

وكان حسن الصورة جليل الهيئة، فما زال يشق الصفوف وأنا ما أشك أنه

(١) وزر: صار وزيراً.

(٢) ثناهم عن الشر: صرفهم عن الشر.

(٣) سليمان بن عبد الملك: من أكابر خلفاء بني أمية، أسس مدينة "الرملة" بفلسطين، حارب البيزنطيين وحاصر

"القسطنطينية".

يروم^(١) الخليفة حتى حاذاني^(٢)، ووقف إلى جانبي، ثم حياني وقال:

يا رجاء... إنك قد ابتليت بهذا الرجل.

وأشار إلى الخليفة.

وإن في القرب منه الخير الكثير، أو الشر الكثير.. فاجعل قُربك منه خيراً لك وله وللناس.

واعلم يا رجاء أنه من كانت له منزلة من السلطان، فرفع إليه حاجة امرئ ضعيف لا يستطيع رفعها، لقي الله عز وجل يوم يلقاه وقد ثبت قدميه للحساب^(٣).. واذكر يا رجاء أن من كان في حاجة أخيه المسلم كان الله في حاجته.

واعلم يا رجاء أن من أحب الأعمال إلى الله عز وجل، إدخال الفرح على قلب امرئ مسلم.

وفيما كنت أتأمل كلامه وأترقب أن يزيدني منه، نادى الخليفة قائلاً:

أين رجاء بن حيوة؟.

فانعطفت^(٤) نحوه وقلت: هانذا يا أمير المؤمنين.

فسألني عن شيء، فما كدت أفرغ من جوابه حتى التفت إلى صاحبي فلم أجد.. فنفضت المكان عنه نفصاً^(٥)، فلم أقع له على أثر بين الناس.

ولقد كانت لرجاء بن حيوة مع خلفاء بني "أمية" مواقف صدق مازال يحفظها التاريخ في أزهى صفحاته، ويرويها الخلف عن السلف.

من ذلك أنه كان ذات يوم في مجلس عبد الملك بن مروان فوصف للخليفة رجل بسوء طويته^(٦) على بني "أمية"، وقيل له:

إنه يشايح ابن الزبير^(٧)، وينتصر له... وذكر الواشي له من أفعاله وأقواله ما أثار حفيظته^(٨) فقال:

(١) يروم الخليفة: يريد الخليفة.

(٢) حاذاني: صار إزائي.

(٣) ثبت قدميه للحساب: أمكنه من الحساب ويسره له.

(٤) انعطفت: ملت.

(٥) نفضت المكان عنه: تحريت المكان بحثاً عنه.

(٦) طويته: ما يطويه في صدره من نية.

(٧) ابن الزبير: هو عبد الله بن الزبير منافس عبد الملك بن مروان على الخلافة.

(٨) حفيظته: الغضب.

والله لئن أمكنني الله منه لأفعلن، ولأفعلن... ولأضعن السيف في عنقه.
ولم يمض وقت طويل حتى أمكنه الله من الرجل، وسيق إليه سوفاً... فلما
وقعت عيناه عليه، كاد يمور من الغيظ، وهم بأن ينفذ وعيده به.. فقام إليه رجاء
ابن حيوة وقال:

يا أمير المؤمنين .. إن الله عز وجل قد صنع لك ما تحبه من القدرة ، فاصنع
لله ما يحبه من العفو.. فسكنت نفس الخليفة، وسكت عنه غضبه.. وعفا عن
الرجل، وأطلق سراحه، وأحسن إليه.

وفي سنة إحدى وتسعين حج الوليد بن عبد الملك وبصحبته رجاء بن حيوة.
فلما بلغا المدينة زارا مسجدها النبوي الشريف يرافقهما عمر بن عبد العزيز.
وقد رغب الخليفة في أن ينظر إلى الحرم النبوي نظرة أناة وروية. إذ كان قد
عقد العزم على توسعته حتى يكون مائتي ذراع.

فأخرج الناس من المسجد ليتمكن الخليفة من تأمله.
ولم يبق فيه غير سعيد بن المسيب، إذ لم يجرو الحرس على إخراجهم.
فأرسل إليه عمر بن عبد العزيز - وكان يومئذ والياً على المدينة- رسوياً
يقول له:

لو خرجت من المسجد كما خرج الناس.
فقال سعيد بن المسيب: لا أغادر المسجد إلا في الوقت الذي اعتدت أن أغادره
فيه كل يوم.

فقيل له: لو قمت فسلمت على أمير المؤمنين.

فقال: إنما جئت إلى هنا لأقوم لرب العالمين.

فلما عرف عمر بن عبد العزيز ما دار بين رسوله وسعيد بن المسيب، جعل
يعدل^(١) بالخليفة عن المكان الذي فيه سعيد.. وأخذ رجاء بن حيوة يشاغله
بالكلام، لما كانا يعلمان من شدة عنفوان^(٢) الخليفة.

(٢) العنقوان: الشدة.

(١) جعل يعدل بالخليفة: أخذ يميل بالخليفة ويبيده.

فقال لهما الوليد: من ذلك الشيخ؟... أليس هو سعيد بن المسيب؟.

فقالا: بلى يا أمير المؤمنين.

وظفقا يصفان من دينه وعلمه، وفضله وتقواه الشيء الكثير.

ثم قالوا: ولو علم الشيخ بمكان أمير المؤمنين لقام إليه وسلم عليه، ولكنه ضعيف البصر.

فقال الوليد: إنى لأعلم من حاله مثلما تذكران.. وهو أحق أن تأتيه ونسلم عليه.

ثم دار في المسجد حتى أتاه، ووقف عليه، وحياه وقال:

كيف الشيخ؟.

فلم ينهض من مكانه، وقال:

بنعمة من الله، وله الحمد والمنة.. فكيف أمير المؤمنين، وفقه الله لما يحبه ويرضاه.. فانصرف الوليد وهو يقول:

هذا بقية الناس... هذا بقية سلف هذه الأمة.

ولما أفضت^(١) الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك كان لرجاء بن حيوة عنده شأن يفوق شأنه عند سابقيه.

فقد كان سليمان عظيم الثقة به، شديد الاعتماد عليه، حريصاً على أن يأخذ برأيه في صغير الأمور وكبيرها... ومواقف رجاء بن حيوة مع سليمان بن عبد الملك كثيرة مثيرة.

بيد أن أكبرها شأناً وأعظمها على الإسلام والمسلمين خطراً، موقفه من أمر ولاية العهد، وأثره في البيعة لعمر بن عبد العزيز.

حدث رجاء بن حيوة قال: لما كان أول يوم جمعة من شهر صفر سنة تسع وتسعين كنا مع أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك "بدابق"^(٢).

وكان قد أرسل جيشاً كبيراً إلى "القسطنطينية" بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك، ومعه ابنه داود، وطائفة كبيرة من آل بيته.

(١) أفضت الخلافة إلى فلان: آلت إليه وصارت له.

(٢) دابق: قرية قرب حلب في سورية كان ينزلها بنو أمية إذا غزوا بلاد الروم، وبها قبر سليمان بن عبد الملك.

وقد آلى^(١) على ألا يبرح "مرج دابق" حتى يفتح الله عليه "القسطنطينية" أو يموت.

فلما اقترب موعد صلاة الجمعة، توضأ الخليفة فأحسن الوضوء، ثم لبس حلة خضراء، واعتم بعمامة خضراء.

ونظر في المرأة نظرة معجب بنفسه، مزهو بشبابه. وكان في نحو الأربعين من عمره.. ثم خرج ليصلى بالناس الجمعة، فلم يرجع من المسجد إلا وهو موعوك^(٢).. ثم أخذ يتقل عليه المرض يوماً بعد يوم.

وقد سألتني أن أظل قريباً منه... فدخلت عليه ذات مرة فوجدته يكتب كتاباً.

فقلت: ما تصنع يا أمير المؤمنين؟

فقال: أكتب كتاباً أعهد^(٣) به إلى ابني أيوب.

فقلت: يا أمير المؤمنين... إن مما يحفظ الخليفة في قبره، ويبرئ ذمته عند ربه، أن يستخلف على الناس الرجل الصالح.

وإن ابنك أيوب غلام لم يبلغ الحلم بعد، ولم يتبين لك صلاحه من طلاحه..

فترجع وقال: إنه كتاب كتبه... وأنا أريد أن أستخير الله فيه... ولم أعزم عليه... ثم مزق الكتاب... ومكث بعد ذلك يوماً أو يومين، ثم دعاني وقال: ما رأيك في ولدي داود يا أبا المقدام؟

فقلت: هو غائب مع جيوش المسلمين في "القسطنطينية"... وأنت لا تدري الآن أحي هو أم ميت؟

فقال: فمن ترى إذن يا رجاء؟

فقلت: الرأي لك يا أمير المؤمنين... وكنت أريد أن أنظر فيمن يذكرهم لكى أستبدهم واحداً واحداً، حتى أصل إلى عمر بن عبد العزيز.

فقال: كيف ترى عمر بن عبد العزيز؟

(١) آلى: حلف.

(٢) الموعوك: من أصابته الحمى.

(٣) أعهد به لائني: أى أعهد له بالخلافة.

فقلت: ما علمته - والله - إلا فاضلاً، كاملاً، عاقلاً، ديناً...

فقال: صدقت... إنه - والله - كذلك...

ولكن إن وليته وأغفلت أولاد عبد الملك^(١) لتكونن فتنة، ولا يتركونه يلى عليهم أبداً.

فقلت: أشرك واحداً منهم واجعله بعده.

فقال: أصبت، فإن ذلك مما يسكنهم، ويجعلهم يرضونه.

ثم كتب بتوليته الخلافة لعمر بن عبد العزيز وجعلها من بعده ليزيد بن عبد الملك وأخذ رجاء البيعة على ما كتبه الخليفة دون أن يعلم أحد به ثم فاجأهم بما فى كتاب الخليفة فيما بعد، بعد أن توفى الله الخليفة، وبالفعل حصل على البيعة لعمر بن عبد العزيز، فطوبى للخليفة سليمان بن عبد الملك، فقد أبرأ نمته أمام الله بتوليته الرجل الصالح، وهنيئاً لوزير الصدق رجاء بن حيوة الذى كان نصحه لوجه الله تعالى ولصالح المسلمين.

رحم الله رجاء بن حيوة شيخ أهل الشام وكبير الدولة الذى واتته المنية سنة ١١٢هـ وكان قد روى عن معاوية وعبد الله بن عمر وجابر الأنصارى وغيرهم.

وقد قال عنه مطر الوراق: ما رأيت شامياً أفقه منه، وقال مكحول بن أبى مسلم: رجاء سيد أهل الشام فى أنفسهم.. رحم الله عالماً الكبير الذى استضاء فكره وبصيرته بنور القرآن وهدى السنة.

* * *

(١) يقصد إخوته.

عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه -

في مصر، وفي حلوان، ولد عمر بن عبد العزيز بن مروان بن أبي العاص ابن أمية القرشي الأموي التابعي العظيم وذلك سنة إحدى وستين هجرية.

حفظ القرآن الكريم وهو صغير، وأرسله والده إلى المدينة ليحفظ السنن، فكان يختلف إلى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة .. وقد ولى إدارة المدينة زمنًا في خلافة الوليد، ثم قدم الشام سنة ٩٣ وبويع بالخلافة سنة ٩٩ هـ .

سمع الحديث النبوي: من أنس بن مالك والسائب بن يزيد ويوسف بن عبد الله بن سلام، وخولة بنت حكيم وغيرهم.

وروى عنه كثير من التابعين منهم: أبو سلمة بن عبد الرحمن، وأبو بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم، والزهري، ويحيى الأنصاري، وكان رضى الله عنه محبا للحديث شغوفًا به، كبير العناية بالسنة حفظًا وتدوينًا.

وكان ثقة، حجة، حافظًا، شهد له العلماء بالحفظ والأمانة، حتى لقد كان يقرب بالزهري في علمه.

وقد حدث عنه علي بن الحسين قال: " أخبرني خارجة بن مصعب عن ابن عون عن مجاهد قال: المهادي سبعة، مضى خمسة، وبقي اثنان. قال خارجة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز - رضى الله عنهم - .. أى هؤلاء هم الخمسة الذين مضوا".

وحدث أبو عبيدة السري بن يحيى بن أبي هنادين قال: سمعت قبيصة بن عقبة يقول: سمعت سفیان الثوري يقول: الخلفاء خمسة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز - رضى الله عنهم -".

ويعتبر كثير من العلماء والكتاب عمر بن عبد العزيز المجدد الأول للإسلام على رأس المائة الأولى من الهجرة.. ويألها من منزلة سامية.

فالواقع^(١) أن الفترة القصيرة التي قضاها الإمام العادل عمر بن عبد العزيز في خلافته، كانت عودة مباركة إلى هذا العهد النبوي المشرق الذي استضاءت

(١) من كتاب (عمر بن عبد العزيز) دكتور أحمد الشرباصي.

أنواره على عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وعلى عهد الخلفاء الراشدين الأربعة -رضوان الله عليهم أجمعين-.

وإذا كنا نرى الخيرات والبركات تفيض على أيدي هؤلاء الأربعة الراشدين، فيجب أن نتذكر ذلك التمهيد الطويل الذي قام به الرسول صلوات الله عليه، ليجعل الطريق لمن بعده معتدلاً مستقيماً، ومن هنا أقبل كل خليفة من هؤلاء الأربعة، فاستقام وتابع، وزاد في الخير.

ولكن عمر بن عبد العزيز جاء في فترة عصبية: ظهرت فيها طوائف وأحزاب، ونبئت خلالها فتن ومحن، واتسعت الفجوة بين الحاكمين والمحكومين، وتحدث الناس عن المظالم والمآثم... فإذا بعمر يقبل إقبال الفجر الصادق: فيرد المظالم، وينصف المظلومين، ويؤدب الخارجين، وينشر السلام والأمان والإحسان بين جميع الناس... فلا عجب أن يجعله المؤرخون خامس الخلفاء -عليه رضوان الله-.

أما عن مواقفه الرائعة فحدث ولا حرج.. فقد كانت للخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، مواقفه الحاسمة في إقرار الأمن والعدالة واتخاذ أدق الأساليب وأحكمها في إدارة شؤون الدولة.

ولقد كان الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز يحرص أشد الحرص على نشر السنة وتبليغها، وتعليمها للناس، وكان يكتب إلى عماله أن يجروا على طلابها والمشتغلين بالعلم الرزق وأن يفرغوهم لطلب العلم.

وكان يريد ذلك حتى لا يشغلهم طلب الرزق والسعي على المعاش عن طلب العلم، حتى يعنوا بالعلم عناية فائقة، وحتى يتمخض طلبهم له، وحفظهم وحرصهم واستيعابهم للعلوم والأحكام والسنن، وحتى لا تضطرهم مطالب المعاش إلى الخروج والسعي، والبحث والتعب فيأخذ كل هذا من أوقاتهم الكثيرة، فهو يرى أن توفير معاشهم وفرغهم لطلب العلم سوف يجعلهم يتقنون العلم أشد الإتقان.

ولعله بهذا يكون أول من أجرى راتباً وشجع طلاب العلم، ولهذا المسلك الكريم مثيله في الأزهر الشريف الذي أجرى لطلاب العلم راتباً يشجعهم على الطلب وهو ما كان يسمى قديماً بـ " الجراية".

عن يحيى بن أبي كثير، قال: "كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله أن أجروا على طلبة العلم الرزق، وفرغوهم للطلب".

وكتب إلى والي حمص يقول له: "انظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقاه، وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا، فأعط كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين، حين يأتيك كتابي هذا. وإن خير الخير أعجله والسلام عليك".

وكتب إلى واليه في رسالة أخرى: "مر لأهل الصلاح من بيت المال بما يغنيهم، لئلا يشغلهم شيء عن تلاوة القرآن وما حملوا من الأحاديث..".

وكان لعمر بن عبد العزيز الفضل في تدوين الحديث النبوي تدويناً رسمياً عندما أصدر أمره إلى علماء الأفاق ليجمعوا الحديث ويدونوه.

روى البخاري- في باب : "كيف يقبض العلم":

"وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم:

انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإنني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ ولتفشوا العلم ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً".

وكان أول من لبى أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بتدوين السنة هو الإمام ابن شهاب الزهري، ثم كثر التدوين بعد ذلك.

وهكذا تتضح لنا همة الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز وعنايته بالسنة النبوية وتدوينها، وعنايته بطلاب العلم والحديث.. وهي عناية فجرت النهضة الحديثية في مصر وفي سائر الأقطار الإسلامية.

رحم الله عمر بن عبد العزيز فقد كان نعم العالم والخليفة العادل حتى اعتبره الكثيرون خامس الخلفاء الراشدين وجزاه الله خير الثواب على دوره في الحفاظ على سنة نبيه ﷺ .

سالم بن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهم -

حفيد الفاروق

ولد سالم بن عبد الله فى رحاب المدينة المنورة مثوى رسول الله ﷺ ودار هجرته.

وفى أجوائها العبة نشأ وشب.. فى كنف أبيه العباد الزهاد عبد الله بن عمر تربي... وبأخلاقه العمرية تخلق.

وقد أبصر أبوه فى سلوكه من شمائل الإسلام، وأخلاق القرآن ما فاق إخوته... فأحبه حباً ملك عليه شغاف^(١) قلبه، حتى لامه اللائمون.

وأقبل عليه بيته ما وعاه صدره من حديث رسول الله ﷺ... ويفقهه فى دين الله... ويمليه من كتاب الله... ثم دفع به إلى الحرم الشريف.

وكان مسجد رسول الله ﷺ مازال معموراً بطائفة كبيرة من جلة الصحابة.

فحينما ألم الفتى بركن من أركانه، ألقى أمامه نجماً فيه ألق^(٢) من سنا^(٣) النبوة، وعبق من طيوب الرسالة الغراء.

وأينما رمى بطرفه أو ألقى بسمعه، أبصر خيراً وسمع برأ.

وبذلك أتيح له أن يأخذ عن طائفة من جلة الصحابة على رأسهم أبو أيوب الأنصارى، وأبو هريرة، وأبو رافع، وأبو لبابة، وزيد بن الخطاب.

وذلك بالإضافة إلى والده عبد الله بن عمر. فما لبث أن غداً علماً من أعلام المسلمين... وسيدا جليلاً من سادة التابعين... وأحد فقهاء المدينة الذين يفرع^(٤) إليهم المسلمون فى دينهم... ويأخذون عنهم شريعة ربهم... ويرجعون إليهم فى معضلات الدين والدنيا.

وكان الولاية يأمرهم قضاتهم إذا عرضت عليهم القضايا أن يدفعوا بها إليهم.

فإذا جاءتهم المسألة اجتمعوا جميعاً ونظروا فيها، ثم لا يقضى القضاء إلا برأيهم.

(٢) ألق: نور وضياء.

(٤) يفرع إليهم المسلمون: يلجأ إليهم المسلمون.

(١) شغاف قلبه: غلاف قلبه.

(٣) من سنا النبوة: من نور النبوة.

وكان أسعد الولاة حظاً، وأطيبهم أحوثة، وأقربهم إلى قلوب الناس، وأوثقهم عند الخلفاء، من يأخذ بمشورة سالم بن عبد الله ويلتزم بتوجيهه.

أما الذين يخالفون أمره، فقد كانت المدينة تنبو^(١) بهم، ولا تتحمل ولايتهم.

من ذلك أن "عبد الرحمن بن الضحاك" ولي المدينة في خلافة يزيد بن عبد الملك. وكانت فاطمة بنت الحسين رضى الله عنه قد تاملت، وانقطعت إلى أولادها.

فتقدم إليها ابن الضحاك وخطبها لنفسه.

فقالت: والله ما أبغى الزواج، ولقد قعدت على بنى، ووقفت نفسى عليهم.

فجعل يلح عليها وهى تحتال فى الاعتذار إليه، من غير مخاشنة خوفاً من شره. فلما وجدها تاباه، قال لها:

والله لئن لم ترضينى لك زوجاً لأخذن أكبر بنيك، ولأجلدنه بتهمة شرب الخمر.

فاستشارت سالم بن عبد الله فى أمرها، فأشار عليها بأن تكتب للخليفة كتاباً تشكو فيه الوالى، وتذكر قرابتها من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، ورحمها^(٢) فى آل البيت.

فكتبت الكتاب، وأنفذته^(٣) مع رسول لها إلى "دمشق".

ما كاد الرسول يمضى بالكتاب حتى جاء أمر الخليفة إلى "ابن هرmez" عامله على ديوان المال فى المدينة بأن يقدم عليه ليرفع إليه حسابه.

فقام "ابن هرmez" يودع أصحاب الحقوق عليه، فاستأذن على فاطمة بنت الحسين مودعاً وقال:

إنى ماضٍ إلى "دمشق" فهل لك من حاجة؟.

فقالت: نعم... تخير أمير المؤمنين بما ألقى من ابن الضحاك وما يتعرض به إلى... وأنه لا يرعى حرمة لعلماء المدينة، وخاصة سالم بن عبد الله.

(٣) أنفذته: أوصلته.

(٢) رحمها: صلتها.

(١) تنبو بهم: تخيق بهم ولا يجدون فيها قراراً.

فلام "ابن هرمز" نفسه على زيارتها، إذ ما كان يريد أن يحمل شكواها من ابن الضحاك إلى الخليفة.

وصل "ابن هرمز" إلى "دمشق" في نفس اليوم الذي وصل فيه الرسول الذي يحمل كتاب فاطمة بنت الحسين.

فلما دخل على الخليفة، استخبره عن أحوال المدينة، وسأله عن سالم بن عبد الله وصحبه من الفقهاء، وقال له:

هل هناك أمر ذو شأن جدير بأن يعلم، أو خبر ذو خطر حرى بأن يذكر؟. فلم يذكر له شيئاً من قصة فاطمة بنت الحسين.

ولم يشر بشيء إلى موقف الوالي من سالم بن عبد الله.

وفيما هو جالس عنده يرفع له حسابه، إذ دخل الحاجب وقال:

أصلح الله الأمير... إن بالباب رسول فاطمة بنت الحسين.

فتغير وجه "ابن هرمز" وقال: أطل الله بقاء الأمير إن فاطمة بنت الحسين حملتني رسالة إليك، وأخبره الخبر... فما أن سمع الخليفة مقالته حتى نزل عن سريره وقال:

لا أم لك... ألم أسألك عن شئون المدينة وأخبارها؟!... أيكون لديك مثل هذا الخبر وتكتمه عني!!?

فاعتذر إليه بالنسيان، ثم أذن للرسول فأدخل عليه، فأخذ الكتاب منه وفضه، وجعل يقرؤه والشرر يتطاير من عينيه، وأخذ يضرب الأرض بخيزران كان في يده وهو يقول:

لقد اجتراً ابن الضحاك على آل رسول الله ﷺ... ولم يصخ^(١) لنصح سالم بن عبد الله فيهم!!!... هل من رجل يسمعنى صوته وهو يعذب فى المدينة، وأنا على فراشى هذا فى "دمشق"؟ (يعنى صوت ابن الضحاك).

فقيل له: نعم يا أمير المؤمنين.. ليس للمدينة إلا "عبد الواحد بن بشر النضرى"... فوله إياها... وهو مقيم الآن فى "الطائف".

(١) لم يصخ: لم يستمع ولم يستجب.

فقال: نعم... والله نعم... إنه لها... ثم دعا بقرطاس وكتب بيده:

من أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك إلى عبد الواحد بن بشر النضري.

السلام عليك... أما بعد... فإنني قد ولّيتك المدينة، فإذا جاءك كتابي هذا فتوجه إليها، واعزل عنها ابن الضحاك... وافرض عليه غرامة مقدارها أربعون ألف دينار... وعذبه حتى أسمع صوته من المدينة.

أخذ صاحب البريد الكتاب، ومضى يحث^(١) الخطا نحو الطائف عن طريق المدينة.

فلما بلغ المدينة لم يدخل على واليها ابن الضحاك ولم يسلم عليه، فأوجس^(٢) الوالي خيفة في نفسه.

وأرسل إليه ودعاه إلى بيته، وسأله عن سبب قدومه فلم يبح له بشيء، فرفع ابن الضحاك طرف فراشه وقال:

انظر... فنظر فإذا كيس قد ملئ دنائير.

فقال: هذه ألف دينار... ولك على عهد الله وميثاقه إن أنت أخبرتني عن وجهتك وما في يدك لأدفعها إليك، ولأكتمن ذلك... فأخبره... فدفع إليه المال، وقال له:

تريث هنا ثلاث ليال حتى أصل إلى "دمشق"، ثم امض إلى ما أمرت به.

ومن ثم غادر ابن الضحاك المدينة، ومضى يحث المطايا نحو "دمشق".

فلما بلغها دخل على أخى الخليفة مسلمة بن عبد الملك، وكان سيداً أريحيّاً^(٣) صاحب نجدة... فلما صار بين يديه قال له: أنا في جوارك أيها الأمير.

فقال: أبشر بخير... وما شأنك؟!.

فقال: إن أمير المؤمنين ناظم على لهنة^(٤) بدرت منى.

فغدا مسلمة على يزيد وقال: إن لى لدى أمير المؤمنين حاجة.

(٢) أوجس خيفة: دب فيه القزع.

(٤) لهنة: لزلة.

(١) يحث الخطا: يمضى مسرعاً.

(٣) أريحيّاً: سامى الخلق والفر المعروف.

فقال يزيد: كل حاجة لك مقضية ما لم تكن في ابن الضحاك.

فقال: والله ما جنتك إلا من أجله.

فقال: والله لا أعفيه أبداً..

ولقد جرب خلفاء بني "أمية" أن يغدقوا على سالم الخير كما أغدقوه على غيره، فوجدوه زاهداً بما في أيديهم... مستصغراً للدنيا وما فيها.

ففي ذات سنة قدم سليمان بن عبد الملك مكة حاجاً... فلما أخذ يطوف طواف القدوم، أبصر سالم بن عبد الله يجلس قبالة الكعبة في خضوع... ويحرك لسانه بالقرآن في تبثل وخشوع... وعبراته تسح على خديه سحاً، حتى لكان وراء عينيه بحراً من الدموع.

فلما فرغ الخليفة من طوافه، وصلى ركعتين سنة الطواف، توجه إلى حيث يجلس سالم بن عبد الله.

فأفسح الناس له الطريق حتى أخذ مكانه بجانبه، وكاد يمس بركبته ركبته.

فلم ينتبه له سالم ولم يلتفت إليه، لأنه كان مستغرقاً بما هو فيه، مشغولاً بذكر الله عن كل شيء... وطفق^(١) الخليفة يرقب سالمًا بطرف خفي... ويلتمس فرصة يتوقف فيها عن التلاوة ويكف عن النحيب^(٢) حتى يكلمه.

فلما وافته الفرصة مال عليه، وقال:

السلام عليك يا أبا عمر ورحمة الله.

فقال: وعليك السلام ورحمة الله تعالى وبركاته.

فقال الخليفة بصوت خفيض:

سلني حاجة أقضها لك يا أبا عمر.

فلم يجبه سالم بشيء.

فظن الخليفة أنه لم يسمعه، فمال عليه أكثر من ذي قبل وقال: رغبت بأن تسألني حاجة لأقضيها لك.

(٢) النحيب: شدة البكاء.

(١) طفق: أخذ.

فَقَالَ سالم: والله إنى لأستحي أن أكون في بيت الله جل وعز، ثم أسأل أحداً غيره.

فخجل الخليفة وسكت، لكنه ظل جالساً في مكانه.. فلما قضيت الصلاة، نهض سالم يريد المضى إلى رحله.

فلحقت به جموع الناس... هذا يسأله عن حديث من أحاديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

وذاك يستفتيه في أمر من أمور الدين... وثالث يستصحه في شأن من شئون الدنيا... ورابع يطلب منه الدعاء.

وكان في جملة من لحق به خليفة المسلمين سليمان بن عبد الملك، فلما رآه الناس، وسعوا له حتى حاذى منكبه منكب سالم بن عبد الله... عليه وهمس في أذنه قائلاً:

هانحن أولاء قد غدونا خارج المسجد، فسلنى حاجة أقضيها لك، فقال سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟.

فارتبك الخليفة وقال: بل من حوائج الدنيا.

فقال له سالم:

إننى لم أطلب حوائج الدنيا ممن يملكها، فكيف أطلبها ممن لا يملكها؟.

فخجل الخليفة منه وحياءه، وانصرف عنه وهو يقول:

ما أعزكم آل الخطاب بالزهداة والتقى؟... وما أغناكم بالله جل وعز!!... بارك الله عليكم من آل بيت.

وكما أشبه سالم جده الفاروق في الإعراض عن الدنيا والزهداة بعرضها الفانى، فقد أشبهه أيضاً في الجهر بكلمة الحق مهما كانت ثقيلة الوطأة شديدة التبعات.. من ذلك أنه دخل على الحجاج ذات مرة في حاجة من حوائج المسلمين.

فرحب به الحجاج وأدنى^(١) مجلسه وبالغ في إكرامه... وفيما هما كذلك، إذ أتى الحجاج بطائفة من الرجال، شعث^(٢) الشعور، غبر الأجسام، صفر الوجوه، مقرنين^(٣) في الأصفاد.

فالتفت الحجاج إلى سالم وقال:

هؤلاء بغاة مفسدون في الأرض، مستبيحون لما حرم الله من الدماء. ثم أعطاه سيفه، وأشار إلى أولهم وقال:

عليك به... فقم إليه واضرب عنقه... فأخذ سالم السيف من يد الحجاج، ومضى نحو الرجل... وقد شخصت^(٤) أبصار القوم نحوه تنظر ماذا يفعل؟!.

فلما وقف على الرجل قال له:

أمسلم أنت؟.

فقال: نعم... ولكن ما أنت وهذا السؤال؟... امض لإنفاذ ما أمرت به.

فقال له سالم: وهل صليت الصبح؟.

فقال الرجل: قلت لك إني مسلم، ثم تسألني: إن كنت صليت الصبح!!.. وهل تظن أن هناك مسلماً لا يصلي؟.

فقال سالم: أسألك أصليت صبح هذا اليوم؟.

فقال الرجل: هداك الله، قلت لك نعم... وسألتك أن تنفذ ما أمرك به هذا الظالم، وإلا عرضت نفسك لسخطه.

فرجع سالم إلى الحجاج، ورمى السيف بين يديه وقال:

إن الرجل يقر بأنه مسلم، ويقول: إنه صلى صبح هذا اليوم، وقد بلغني أن رسول الله ﷺ قال: (من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله).

وإني لا أقتل رجلاً دخل في ذمة الله عز وجل.

فقال له الحجاج مغضباً:

(٢) شعث الشعور: متلبدى الشعور.

(٤) شخصت: نظرت.

(١) أدنى مجلسه: قرب مجلسه منه توكيراً له وإكراماً.

(٣) مقرنين في الأصفاد: مقبدين بالحديد.

إننا لا نقتله على ترك صلاة الصبح... وإنما نقتله لأنه ممن أعان على قتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

فقال له سالم: إن في الناس من هو أولى منى ومنك بدم عثمان. فسكت الحجاج، ولم يحر (١) جواباً.

ثم إن أحد شهود المجلس قدم على المدينة وأخبر عبد الله بن عمر بما طلبه الحجاج من ابنه سالم.

فلم يتريث (٢) حتى يسمع بقية الخبر... وإنما بادر (٣) محدثه قائلاً: وما صنع سالم بأمر الحجاج؟

فقال له: صنع كذا وكذا.

فسرى (٤) عنه، وقال: كيس كيس (٥)... عاقل عاقل.

ولما آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز (٦) كتب إلى سالم بن عبد الله يقول:

أما بعد... فإن الله عز وجل ابتلاني بما ابتلاني به من ولاية أمر المسلمين عن غير مشورة منى ولا طلب.

فأسأل الله الذي ابتلاني بهذا الأمر أن يعينني عليه.

فإذا جاءك كتابي هذا، فابعث لى بكتب عمر بن الخطاب، وأقضيته، وسيرته... فإنى عازم على أن أتبع سيرته... وأسير على نهجه إن أعاننى الله على ذلك... والسلام.

فكتب إليه سالم يقول:

أما بعد... فقد جاءنى كتابك الذى تذكر فيه أن الله عز وجل ابتلاك بإمرة المسلمين من غير طلب منك ولا مشورة... وأنت تريد أن تسير بسيرة عمر... فلا يفتك أنك فى زمان غير زمان عمر... وأنه ليس فى رجالك من يماثل رجال عمر.

(٢) لم يتريث: لم ينتظر.

(٤) سرى عنه: زال عنه الهم والقلق.

(٦) عمر بن عبد العزيز: انظره ص ٣٢٦، ٢٥٥، ٨٠.

(١) لم يحر جواباً: لم يرد جواباً.

(٣) بادر: عاجل.

(٥) كيس كيس: حسن حسن.

ولكن اعلم أنك إن نويت الحق وأردته، أعانك الله عليه، وأتاح لك عمالاً يقومون لك به.. وأتاك بهم من حيث لا تحسب.. فإن عون الله للعبد على قدر نيته.. فمن تمت نيته في الخير تم عون الله له، ومن قصرت نيته نقص من عون الله له بقدر نقص نيته.

وإذا نازعتك نفسك إلى شيء مما لا يرضى الله عز وجل، فاذا ذكر من كان قبلك من ذوى السلطان الذين سبقوك إلى الرحيل عن هذه الدنيا... وسل نفسك كيف تفقأت^(١) عيونهم التي كانوا يشهدون بها اللذات، وكيف تمزقت بطونهم التي كانوا لا يشبعون بها من الشهوات.

وكيف صاروا جيفاً لو تركت إلى جانب مساكننا ولم توارها آكام^(٢) الأرض، لضجنا من ريحها.. ولمسنا الضر من نبتها. والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد... فقد عاش سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عمراً مديداً حافلاً بالتقى... عامراً بالهدى... أعرض فيه عن زينة الدنيا وزخرفها... وأقبل خلاله على ما يرضى الله... فأكل من الطعام ما غلظ... وليس من الثياب ما خشن... وغزا "الروم" مع جيوش المسلمين جندياً... وقضى حوائج المسلمين، وحنأ^(٣) عليهم حنو الأمهات... فلما أتاه اليقين^(٤) سنة ست ومائة للهجرة، ارتجت المدينة حزناً عليه.

وترك نعيه في كل قلب لوعة... وعلى كل خد دمة... وهب الناس، كل الناس يشيعون جنازته، ويشهدون دفنه... وكان هشام بن عبد الملك يومئذ موجوداً في المدينة، فخرج للصلاة عليه وتشييعه.

فلما رأى تراحم الناس وتدققهم، هالته كثرتهم، وأثارت في صدره شيئاً من الحسد، فسأله نفسه قائلاً:

ترى كم يخرج من هؤلاء الناس لو أن خليفة المسلمين مات في بلادهم هذا؟.

(٢) الآكام: المرتفعات.

(٤) اليقين: الموت.

(١) تفقأت: قلمت.

(٣) حنأ عليهم: مال إليهم وعطف عليهم.

ثم قال "لإبراهيم بن هشام المخزومي" واليه على المدينة: افرض على أهل المدينة أن يبعثوا أربعة آلاف رجل إلى الثغور. فسمى ذلك العام عام الأربعة الآلاف.

رحم الله سالم بن عبد الله فقد كان نعم الفقيه والمحدث وقد قال عنه الإمام مالك: "لم يكن أحد في زمان سالم بن عبد الله أشبه منه بمن مضى من الصالحين في الزهد، والفضل، والعيش".

* * *

القاسم بن محمد بن أبي بكر - رضى الله عنهم -

ولد القاسم بن محمد في أواخر خلافة عثمان بن عفان - رضى الله تعالى عنه - .. لكن الطفل الصغير ما كاد يمشى بين أقرانه ، حتى هبت في ديار المسلمين ريح الفتنة العاصفة... فاستشهد الخليفة العباد الزهاد ذو النورين عثمان ابن عفان رضي الله عنه وهو منحن بصلبه^(١) على أجزاء القرآن.

ونشب الخلاف الكبير بين أمير المؤمنين على بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان أمير بلاد الشام... وفي سلسلة مفزعة مذهلة من الأحداث المتلاحقة... وجد الطفل الصغير نفسه يحمل مع أخته من المدينة إلى "مصر"... فقد كان عليهما أن يلحقا بأبيهما، بعد أن غدا والياً عليها من قبل أمير المؤمنين على بن أبي طالب.

ثم رأى أظافر الفتنة الحمر تمتد إلى أبيه، فتقتله شر قتلة.

ثم ألقى^(٢) نفسه ينقل مرة أخرى من "مصر" إلى المدينة، بعد أن استولى عليها أنصار معاوية... وقد أصبح يتيماً لطيماً بلا أبوين.

حدث القاسم نفسه عن رحلة العذاب هذه وما تلاها، فقال:

لما قتل أبي بمصر جاء عمي عبد الرحمن بن أبي بكر، فاحتملني أنا وأختي الصغيرة... ومضى بنا إلى المدينة.

(٢) ألقى نفسه: وجد نفسه.

(١) صلبه: عظم ظهره.

فما أن بلغناها حتى بعثت إلينا عمتي عائشة رضي الله عنها، فحملتنا من منزل عمي إلى بيتها.. وربتنا في حجرها. (١)

فما رأيت والدة قط ولا والداً أكثر منها برأ... ولا أوفر (٢) شفقة... كانت تطعمنا بيديها، ولا تأكل معنا... فإذا بقي من طعامنا شيء أكلته.

وكانت تحنو علينا حنو المرضعات على الفطيم (٣)، فتغسل أجسادنا... وتمشط شعورنا... وتلبسنا الأبيض الناصع من الثياب.

وكانت لا تفتأ تحضنا على الخير، وتمرسنا (٤) بفعله... وتنهانا عن الشر، وتحملنا على تركه.

وقد دأبت على تلقيننا ما نطيقه من كتاب الله... وترويتنا (٥) ما نعلمه من حديث رسول الله ﷺ.

وكانت تزيدنا برأ وإتحافاً (٦) في العيدين... فإذا كانت عشية "عرفة" حلقت لي شعري... وغسلتني أنا وأختي... فإذا أصبحنا ألبستنا الجديد... وبعثت بنا إلى المسجد لنؤدي صلاة العيد.

فإذا عدنا منه جمعتني أنا وأختي وضحت بين أيدينا.

وفي ذات يوم ألبستنا ثياباً بيضاً، ثم أجلسني على إحدى ركبتيها... وأجلست أختي على ركبتيها الأخرى.

وكانت قد دعت عمي عبد الرحمن... فلما دخل عليها حيتّه، ثم تكلمت: فحمدت الله جل وعز، وأثنت عليه بما هو أهله. (٧)

فما رأيت متكلماً قط من رجل أو امرأة قبلها ولا بعدها، أفصح منها لساناً... ولا أعذب (٨) بياناً... ثم قالت: أي أخي (٩)... إنني لم أزل أراك معرضاً (١٠) عني منذ أخذت هذين الصبيين منك، وضممتهم إلي... والله ما فعلت ذلك تطاولاً (١١)

(٢) أوفر شفقة: أكثر حناناً.

(٤) تمرسنا: تدرينا.

(٦) إتحافاً: إهداء.

(٨) أعذب بياناً: أحلى كلاماً وأبلغ قولاً.

(١٠) معرضاً عني: مباحداً لي.

(١) الحجر: الحزن، وفي حجرها: في كنفها ورعايتها.

(٣) الفطيم: الصغير المفطوم عن الرضاع.

(٥) ترويتنا: جعلنا نروي الحديث.

(٧) بما هو أهله: بما يليق بذاته.

(٩) أي أخي: يا أخي.

(١١) تطاولاً عليك: اعتلاء عليك.

عليك... ولا سوء ظن بك... ولا اتهاماً لك بالتقصير في حقهما... ولكنك رجل ذو نساء^(١)... وهما صبيان صغيران لا يقومان بأمر^(٢) نفسيهما.

فخشيت أن يرى نساؤك منهما ما يتقذرنه^(٣)، فلا يطبن بهما نفساً. ووجدت أني أحق منهن بالقيام على أمرهما في هذه الحال... وهما الآن قد شبأ، وأصبحا قادرين على القيام بأمر نفسيهما... فخذهما وضمهما إليك.

فأخذنا عمي عبد الرحمن، وضمنا إلى بيته.

بيد أن الغلام "البكري" ظل معلق القلب ببيت عمته أم المؤمنين - رضوان الله عليها - .. فعلى أرض بيتها المعطرة بطيوب النبوة تربي... وفي رحاب صاحبته تربي وترعرع... ومن حنانها المتدفق نهل^(٤) وارثوي.. فصار يوزع وقته بين بيتها وبيت عمه.

ولما شب الفتى "البكري" كان قد حفظ كتاب الله عز وجل... وأخذ عن عمته عائشة من حديث رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يأخذ.

ثم أقبل على الحرم النبوي الشريف، وانقطع إلى حلقات العلم التي كانت تنتشر في كل ركن من أركانه.

فروى عن أبي هريرة، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله ابن الزبير... وعبد الله بن جعفر، وعبد الله بن خباب، ورافع بن خديج، وأسلم مولى عمر بن الخطاب، وغيرهم الكثيرون... حتى غدا إماماً مجتهداً... وأصبح من أعلم أهل زمانه بالسنة.

وكان الرجل لا يعد رجلاً عندهم حتى يتقن السنة.

ولما اكتملت للشباب البكري أدوات المعرفة، أقبل الناس عليه يلتمسون عنده العلم بشغف^(٥)... وأقبل هو عليهم ببذله لهم بسخاء.

فكان يأتي مسجد رسول الله صلوات الله عليه وسلامه غداة كل يوم في موعد

(٢) بأمر نفسيهما: بخدمة ذاتيهما.

(٤) نهل: استقى.

(١) ذو نساء: متعدد الزوجات.

(٣) ما يتقذرنه: ما لا يتحملنه من أوساخهما.

(٥) بشغف: بشوق ورغبة.

لايخلفه... فيصلى ركعتين يحيى بهما المسجد... ثم يأخذ مكانه أمام خوخة^(١) عمر في الروضة الغراء بين قبر النبي صلوات الله وسلامه عليه وبين منبره.

فيجتمع عليه طلاب العلم من كل مكان... وينهلون من موارد العذبة المصفاة ما يملأ النفوس العطشى رياً.

ولم يمض وقت طويل حتى أصبح القاسم بن محمد وابن خالته سالم بن عبد الله بن عمر إمامي المدينة الموثوقين^(٢)... وسيديها المطاعين، ورجليها النافذين^(٣)... على الرغم من أنه لم تكن في أيديهما ولاية ولا سلطان.

فقد سودهما^(٤) الناس لما كانا يتحليان به من التقى والورع... وما يحملانه في صدريهما من العلم والفقهاء... وما يزدانان به من الزهادة بما في أيدي الناس، والرغبة بما عند الله عز وجل.

وقد بلغ من مكانتهما في النفوس أن خلفاء بني "أمية" وولاتهم كانوا لا يقطعون أمراً ذا بال^(٥) في شأن من شئون المدينة إلا برأييهما.

من ذلك أن الوليد بن عبد الملك قد عقد العزم على توسعة الحرم النبوي الشريف.

ولم يكن في وسعه أن يحقق هذه الأمنية الغالية إلا إذا هدم المسجد القديم من جهاته الأربع... وأزال بيوت زوجات النبي صلوات الله وسلامه عليه، وضمها إلى المسجد.

وهي أمور تشق^(٦) على الناس... ولا تطيب^(٧) نفوسهم بها... فكتب إلى عمر ابن عبد العزيز واليه على المدينة يقول:

لقد رأيت أن أوسع مسجد رسول الله ﷺ حتى يصبح مائتي ذراع في مائتي ذراع.

فأهدم جدرانه الأربعة، وأدخل فيه حجر^(٨) زوجات النبي ﷺ.. واشتر ما في نواحيه من البيوت... وقدم القبلة إن قدرت.

(١) الخوخة: نافذة صغيرة في البيت تؤدي إليه الضوء، وهي الباب الصغير في الباب الكبير.

(٢) الموثوقين: الذين يثق بهما الناس.

(٣) النافذين: المسموعى الكلمة.

(٤) سودهما الناس: أمرهما الناس عليهم.

(٥) ذا بال: ذا شأن.

(٦) تشق على الناس: تصعب عليهم.

(٧) لا تطيب نفوسهم بها: لا يسرون بها، ولا يرتاحون إليها.

(٨) حجر: غرف.

وإنك تستطيع ذلك لمكان^(١) أخوالك آل الخطاب، ومنزلتهم في قلوب الناس.

فإذا أبي عليك أهل المدينة ذلك، فاستعن بالقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله ابن عمر، وأشركهما معك في الأمر.. وادفع إلى الناس أثمان بيوتهم بسخاء.. وإن لك في ذلك سلفى صدق.. هما عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان.

فدعا عمر بن عبد العزيز القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وطائفة من وجوه أهل المدينة، وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين... فسروا بما عزم عليه الخليفة، وهبوا لإنفاذه^(٢).

فلما رأى الناس عالمي المدينة وإماميها الكبيرين، يبأشران هدم المسجد بأيديهما، قاموا معهما قومة رجل واحد.. وأنفذوا ما جاء في كتاب أمير المؤمنين... وكانت جيوش المسلمين المظفرة تدق آنئذ أبواب الحصون المفضية^(٣) إلى مدينة "القسطنطينية".

وتستولى عليها واحداً بعد الآخر بقيادة الأمير الباسل مسلمة بن عبد الملك ابن مروان^(٤)... وذلك تمهيداً لفتح "القسطنطينية" نفسها.

فلما علم ملك "الروم" بعزم أمير المؤمنين على توسعة المسجد النبوي الشريف، أحب أن يصانعه^(٥)، ويتقرب إليه بما يسره... فبعث إليه بمائة ألف متقال من الذهب.. وأرسل معها مائة عامل من أمهر البنائين في بلاد "الروم".. وزود العمال بأربعين حملاً من الفسيفساء^(٦).. فأرسل الوليد ذلك كله إلى عمر بن عبد العزيز، ليستعين به على بناء المسجد.. فأنفق عمر بمشورة القاسم بن محمد وصاحبه.

ولقد كان القاسم بن محمد أشد الناس تأسياً^(٧) بجده الصديق رضوان الله عليه، حتى قال الناس:

(١) لمكان أخوالك: لمقامهم ومنزلتهم.

(٢) المفضية: الموصلة.

(٣) هبوا لإنفاذه: انطلقوا للقيام به.

(٤) هو أحد كبار قادة المسلمين، غزا بلاد أرمينيا كما غزا بلاد الروم حتى بلغ خليج القسطنطينية.

(٥) يصانعه: يداريه ويدهنه.

(٦) الفسيفساء: قطع صغيرة من الرخام زاهية الألوان يولف بعضها مع بعض في أشكال رائعة بديعة، وتزين بها

جدران القصور.

(٧) تأسياً بفلان: تشبهاً به، وجرياً على منهجه.

لم يلد أبو بكر ولداً أشبه به من هذا الفتى.

فلقد أشبهه في كرم شمائله^(١)، ونبل خصائله^(٢).. وصلاية إيمانه، وشدة ورعه.. وسماحة نفسه، وسخاء يده.. وقد أثر عنه كثير من الأقوال والأفعال تشهد له بهذا.

وقد عمر القاسم بن محمد حتى زاد على الثانية والسبعين.. لكنه كف بصره وهو شيخ كبير.

وفي آخر سنة من حياته، قصد مكة يريد الحج... وفيما هو في بعض طريقه أتاه اليقين^(٣).. فلما أحس بالأجل^(٤) النفث إلى ابنه وقال:

إذا أنا مت، فكفني بثيابي التي كنت أصلى فيها:

قميصي... وإزارى... وردائى... فذلك كان كفن جدك أبى بكر.

ثم سو على لحدى. والحق بأهلك.

وإياكم أن تقفوا على قبرى، وتقولوا: كان... وكان... فما كنت شيئاً.

رحم الله القاسم بن محمد هذا العالم الفذ المتواضع الذى لم تغره الدنيا وتركها وهو راض رافضاً أن يشيد أحد بمآثره.

* * *

(١) كرم شمائله: سمو أخلاقه.

(٢) نبل خصائله: رفعة صفاته.

(٤) الأجل: الوفاة.

(٣) اليقين: الانتقال إلى الآخرة.

زين العابدين - رضى الله عنه -

زين العابدين هو على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما رابع الخلفاء الراشدين وابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته وقرّة عينه فاطمة.

وقد لقب بـ " زين العابدين " لورعه وتقائه واتقائه لشعائره.. وهذا اللقب دعاه به الناس حتى نسى قومه اسمه أو كادوا وأثروا لقبه هذا عليه.

وما كاد على بن الحسين يبلغ سن التمييز، حتى أقبل على طلب العلم بشغف وشوق... وكانت مدرسته الأولى بيته، وما أكرمه من بيت.

وكان معلمه الأول والده الحسين بن على، وما أعظمه من معلم أيضاً. أما مدرسته الثانية، فمسجد الرسول الأعظم ﷺ .

وكان المسجد النبوى الشريف - يومئذ - يموج بالبقية الباقية من صحابة الرسول الكريم، ويزخر بالطبقة الأولى من كبار التابعين.

وكان هؤلاء وهؤلاء، يفتحون قلوبهم لهذه الزهور المزهرة من أبناء الصحابة الكرام، فيقرنونهم كتاب الله عز وجل.. ويفقهونهم فيه.

ويروون لهم حديث رسول الله ﷺ.. ويقفونهم على مراميه.. ويقصون عليهم سيرة الرسول الأعظم ﷺ ومغازيه.. وينشدونهم شعر العرب، ويبصرونهم بمواطن جماله.. ويملأون قلوبهم الغضة بحب الله عز وجل، وخشيته، وتقواه.. فإذا هم علماء عاملون، وهداة مهديون.

لكن على بن الحسين لم يتعلق قلبه بشيء كما تعلق بكتاب الله عز وجل.. ولم تهتز مشاعره لأمر كما كانت تهتز لوعده ووعيده.. فإذا قرأ آية فيها ذكر الجنة، طار فؤاده شوقاً إليها.. وإذا سمع آية فيها ذكر النار، زفر زفرة كأن لهيب جهنم فى أحشائه.

وما إن اكتمل على بن الحسين شباباً وعلماً، حتى ظفر المجتمع المدني الأملئ بفتى من أعمق فتيان بنى "هاشم" عبادة وتقى.. وأعظمهم فضلاً وخلقاً.. وأكثرهم إحساناً وبراً.. وأوسعهم معرفة وعلماً.

فلقد بلغ من عبادته وتقواه، أنه كانت تأخذه رعدة بين وضوئه وصلاته، فينتفض جسده نفضاً.

فلما كلم في ذلك قال: ويحكم!!.. كأنكم لا تدرّون إلى من أقوم.. ولاتعلمون من أريد أن أناجي.

وقد بلغ من إطالته لسجوده، واستغراقه فيه أن ناداه أهل المدينة بالسجاد^(١).. وقد بلغ من صفاء نفسه ونقاء قلبه أن نعتوه بالزكي^(٢).

وكان زين العابدين رضوان الله عليه يوقن أن أساس العبادة الدعاء.. وكان يطيب له الدعاء أكثر ما يطيب وهو متعلق بأستار الكعبة.

فلكم التزم البيت العتيق، وجعل يقول:

رب لقد أدقنتني من رحمتك ما أدقنتني.. وأوليتني من إنعامك ما أوليتني.. فصرت أدعوك آمناً من غير وجل.. وأسألك مستأنساً من غير خوف.. رب إني أتوسل إليك توسل من اشتدت فاقته إلى رحمتك.. وضعفت قوته عن أداء حقوقك.. فأقبل مني دعاء الغريق الغريب الذي لا يجد لإنقاذه إلا أنت يا أكرم الأكرمين.

ولقد أفاضت التقوى على زين العابدين ما شاء الله أن تفيض من شمائل الفضل، والنبيل، والحلم.. حتى ازدانت كتب السير بروائع أخباره، وزهت صفحاتها بنبيل مواقفه.

ولقد وسع^(٣) الله عز وجل على زين العابدين، وأفاض^(٤) عليه الرزق فيضاً... فكانت له تجارة رابحة... وزراعة نامية... وكان ينهض بهما غلمانه.

وكانت زراعته وتجارته تدران عليه الخير الوفير، والمال الكثير.. لكن زين العابدين لم يغر الغنى.. ولم تبطره النعمة.. وإنما جعل مال الدنيا مطية للفوز في الآخرة.

فكان ثراؤه نعم الثراء الصالح للعبد الصالح.

(١) السجاد: المعرق في السجود، المطيل له.

(٢) الزكي: النقي الخالص من الذنوب.

(٣) وسع الله عليه: أغدق عليه المال.

(٤) أفاض: أكثر.

وكان أكثر ما حُبب إليه من أعمال البر صدقة السر.

فكان إذا جن^(١) الليل يحمل أكياس الدقيق على ظهره الناحل^(٢)، ويخرج بهسا في عتَمات الليل والناس نيام.. وكان يجوب بها أحياء المدينة ليتصدق على ذوى الحاجات ممن لا يسألون الناس إلحافاً.^(٣)

فكانت جماعات كثيرة من أهل المدينة تعيش وهي لا تدري من أين يأتيها رزقها رغداً.^(٤)

فلما مات على بن الحسين، فقد هؤلاء ما كان يأتيهم من رزق، فعرفوا مصدره. ولما وضع زين العابدين على المغتسل، نظر غاسلوه.. فوجدوا في ظهره آثار سواد، فقالوا: ما هذا؟.

فقيل لهم: إنه من آثار حمل أكياس الدقيق إلى مائة بيت في المدينة فقدت عائلتها بفقده.

أما أخبار عتق على بن الحسين للأرقاء فقد شرقت بها الركبان^(٥). وغربت.. لأن صنيعه هذا فاق خيال المتخيلين.. وجاوز تطلع المتطلعين^(٦).

فكان يعتق العبد إذا أحسن، مكافأة له على إحسانه.. وكان يعتق العبد إذا أساء وتاب، جزاء له على توبته.. حتى روى الراونن أنه أعتق ألف عبد.. وأنه لم يستخدم أحداً من غلمانته وإمائته أكثر من عام واحد.

وكان عتقه لعبيده يقع أكثر ما يقع ليلة عيد الفطر... حيث كان يحرر في تلك الليلة المباركة ما يقدره الله على تحريره من رقاب الأرقاء.

ويسألهم أن يتوجهوا إلى القبلة، وأن يقولوا: اللهم اغفر لعلى بن الحسين.. ثم يزودهم بما يجعل عيدهم عيدين، وفرحتهم فرحتين.

ولقد حل على بن الحسين من قلوب الناس منزلة لم يزد عليها عصره.. فلقد أحبه الناس أصدق ما يكون الحب.. وأجلوه أعظم ما يكون الإجلال.. وتعلقوا به

(٢) الناحل: الضعيف الهزيل.

(٤) رغداً طيباً واسعاً.

(٦) المتطلعين: العارفين.

(١) جن الليل: أظلم الليل.

(٣) إلحافاً: إلحاحاً.

(٥) الركبان: المسافرون المتقلون في البلاد.

أشد ما يكون التعلق.. واشتاقوا إلى رؤيته أعمق ما يكون الشوق.. فكانوا يترقبونه لينعموا برؤياه خارجاً من البيت أو داخلاً إليه.. أو غادياً إلى المسجد أو رانحاً منه.

رضى الله عن سبط رسول الله وأرضاه.. فقد كان صورة فذة للذي يخشى الله في السر والعلن.. ويضنى النفس خوفاً من عقاب الله.. وطمعاً في ثوابه.

* * *

ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ - رضى الله عنه -

الشهير بـ "ربيعة الراي"

هو ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ.. ولد ربيعة أثناء غياب والده في الجهاد رغبة منه في الاستشهاد إغزازاً لدينه وتحقيق النصر تحت راية من رايات المسلمين المنتشرة تحت كل نجم.

وقد ترك عبد الرحمن ﷺ لزوجته وجنينها ثلاثين ألف دينار جمعها من غنائم الحرب، وحثها على صونها واستثمارها وأن تتفق منها على نفسها ووليدها وتركها غير عابئ بمصيره.

وقد وضعت السيدة الرزان^(١) حملها بعد رحيل زوجها ببضعة أشهر، وكان غلاماً مشرق الوجه، حلو القسمات، رائع المجتلى^(٢).

ففرحت به فرحاً عظيماً كاد ينسيها فراق أبيه.. وأطلقت عليه اسم "ربيعة".

بدأت على الغلام الصغير علامات النجابة منذ نعومة أظفاره.. وظهرت أمارات^(٣) الذكاء في أفعاله وأقواله.

فأسلمته أمه إلى المعلمين، وأوصتهم بأن يحسنوا تعليمه.. واستدعت له المؤدبين وحضتهم على أن يحكموا تأديبه.

فما لبث كثيراً حتى أتقن الكتابة والقراءة.. ثم حفظ كتاب الله جل وعز، وجعل يرثله ندياً طرياً كما أنزل على فؤاد محمد صلوات الله وسلامه عليه..

(٢) رائع المجتلى: يروع عين رائيه.

(١) المرأة الرزان: المرأة الرصينة الرزينة.

(٣) الأمارات: الدلائل والعلامات.

ووعى ما تيسر له من حديث رسول الله ﷺ.. واستظهر من كلام العرب ما يحسن بمثله أن يستظهر.. وعرف من أمور الدين ما ينبغى أن يعرف.

وقد أهدقت^(١) أم ربيعة على معلمى ولدها ومؤدبيه المال والجوائز إغداقاً. فكانت كلما رأتها يزداد علماء، تزيدهم براً وإكراماً.. وكانت تترقب عودة أبيه الغائب، وتجتهد فى أن تجعله قره^(٢) عين لها وله. لكن "قروحاً" طال غيبته.

ثم تضاربت الأقوال فيه.

فقال بعضهم: إنه وقع أسيراً فى أيدي الأعداء.

وقال آخرون: إنه مازال طليقاً يواصل الجهاد.

وقال فريق ثالث عائد من ساحات القتال: إنه نال الشهادة التى تمنهاها.

فترجح هذا القول الأخير عند أم ربيعة لانقطاع أخباره، فحزنت عليه حزناً أمض^(٣) فوادها.

ثم احتسبته عند الله^(٤).

كان ربيعة يومئذ قد أيفع وكاد يدخل فى مداخل الشباب فقال الناصحون لأمه:

هاهو ذا ربيعة قد استكمل ما ينبغى لفتى مثله أن يستكمله من القراءة والكتابة.. وزاد على أقرانه فحفظ القرآن وروى الحديث.

فلو تخيرت له حرفة من الحرف، فإنه لا يلبث أن يتقنها، وينفق عليك وعلى نفسه مما تدره من خير، فقالت:

أسأل الله أن يخير^(٥) له ما فيه صلاح معاشه ومعاده^(٦).. إن ربيعة قد اختار لنفسه العلم.. وعزم على أن يعيش متعلماً ومعلماً ما امتدت به الحياة.

مضى ربيعة فى الطريق التى اختطها لنفسه غير وان ولا مقصر.

(١) أهدقت: أكثرت وأجزلت.

(٢) قره عين: مبعث فرح وسرور.

(٣) أمض فوادها: أحزنه وأوجعه.

(٤) احتسبته عند الله: طلبت أجرها عليه من الله.

(٥) يخير له: يختار له.

(٦) معاشه ومعاده: أى معاشه فى الدنيا، ومعاده فى الآخرة.

وأقبل على حلقات العلم التي كان يزخر^(١) بها مسجد المدينة كما يقبل الظماء^(٢) على الموارد العذاب^(٣).

ولزم البقية الباقية من الصحابة الكرام، وعلى رأسهم أنس بن مالك^(٤) خادم رسول الله ﷺ.. وأخذ عن الرعيل الأول^(٥) من التابعين وفي مقدمتهم:

سعید بن المسيب^(٦)، ومكحول الشامي، وسلمة بن دينار^(٧).. وواصل كلال^(٨) ليله بكلال نهاره حتى أنهكه الجهد.

فإذا كلمه أحد في ذلك ودعاه إلى الرفق بنفسه، قال:

سمعنا أشياخنا يقولون:

"إن العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته نفسك كلها".. ثم ما لبث^(٩) كثيراً حتى ارتفع ذكره، وبزغ نجمه، وكثر إخوانه. وأولع به تلاميذه، وسوده^(١٠) قومه.

ولقد سارت حياة عالم المدينة هادئة وادعة.. فشطرت من يومه في داره لأهله وإخوانه..

وآخر في مسجد رسول الله ﷺ لمجالس العلم وحلقاته.. ولقد مضت حياته متشابهة حتى وقع فيها ما لم يكن في الحسينان.. فقد عاد والد ربيعة بعد ما يقرب من ثلث قرن من الزمان للبحث عنهما، وبعد أن توصل لهما واحتقوا ببعضهما البعض بدأ يسأل زوجته عما تركه لها من مال حتى يضم له ما معه من مال فقالت له إنها قد وضعت حيث يجب أن يوضع ثم سمع صوت المؤذن فخرج للمسجد الذي سبقه إليه ربيعة، وحيثما أنهى صلاته وهم بمغادرته وجد باحته قد غصت على رحبها بمجلس من مجالس العلم لم يشهد له نظيراً من قبل.

ورأى الناس قد تحلقوا حول شيخ المجلس حلقة إثر حلقة، حتى لم يتركوا في الساحة موطئاً لقدم.

(١) يزخر بها: يوج بها.
 (٢) الظماء: العطاش.
 (٣) العذاب: العذبة الطوة.
 (٤) أنس بن مالك الأنصاري: كتاب صور من حياة الصحابة د. عبد الرحمن رأفت الباشا.
 (٥) الرعيل الأول: الفريق المتقدم.
 (٦) سعید بن المسيب: انظره ص ١٩٧.
 (٧) سلمة بن دينار: انظره ص ١٨٥.
 (٨) الكلال: التعب والنصب.
 (٩) ما لبث: ما أبطا.
 (١٠) سوده قومه: جعلوه سيداً عليهم.

وأجال بصره فى الناس، فإذا فىهم شيوخ معمون ذوو أسنان^(١).. ورجال متقرون^(٢) تدل هياتهم على أنهم ذوو أقدار^(٣).

وشبان كثيرون قد جثوا على ركبهم، وأخذوا أقلامهم بأيديهم، وجعلوا يلتقطون ما يقوله الشيخ كما تلتقط الدرر.. ويحفظونه فى دفاترهم كما تحفظ الأعلق^(٤) النفيسة.

وكان الناس متجهين بأبصارهم إلى حيث يجلس الشيخ، منصتين إلى كل ما يلفظ من قول حتى لكان على رؤوسهم الطير.

وكان المبلغون ينقلون ما يقوله الشيخ فقرة فقرة، فلا يفوت أحداً شىء من كلامه مهما كان بعيداً.

وحاول "فروخ" أن يتبين صورة الشيخ.. فلم يفلح لموقعه منه، وبعده عنه.

لقد راعه منه بيانه المشرق، وعلمه المتدفق، وحافظته العجيبة.

وأدهشه خضوع الناس بين يديه.

وما هو إلا قليل حتى ختم الشيخ مجلسه ونهض واقفاً.

فهب الناس متجهين نحوه، وتزاحموا عليه، وأحاطوا به، واندفعوا وراءه يشيعونه^(٥) إلى خارج المسجد.

وهنا التفت "فروخ" إلى رجل كان يجلس بجانبه وقال:

قل لى - بربك - من الشيخ؟!.

فقال الرجل باستغراب: أولست من أهل المدينة؟.

فقال "فروخ": بلى.

فقال الرجل: وهل فى المدينة رجل واحد لا يعرف الشيخ؟!.

فقال "فروخ": اعذرنى إذا كنت لا أعرفه.

فلقد أمضيت نحواً من ثلاثين عاماً بعيداً عن المدينة، ولم أعد إليها إلا أمس..

فقال الرجل:

(٢) متقرون: مظهرين الوقار.

(٤) الأعلق: النفائس التى تقتنى.

(١) ذوو أسنان: ذوو أعمار، أى كبار السن.

(٣) ذوو أقدار: لهم منزلة وشان.

(٥) يشيعونه: يودعونه.

لا بأس.. اجلس إليّ قليلاً أحدثك عن الشيخ.

ثم قال: إن الشيخ الذي استمعت إليه سيد من سادات التابعين، وعلم من أعلام المسلمين.

وهو محدث المدينة، وفقهها، وإمامها على الرغم من حداثة سنه.

فقال "فروخ": ما شاء الله، لا قوة إلا بالله..

فأتبع الرجل يقول: وإن مجلسه يضم - كما رأيت - مالك بن أنس، وأبا حنيفة النعمان، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وسفيان الثوري، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، والليث بن سعد، وغيرهم وغيرهم.

فقال "فروخ": غير أنك..

فلم يتح له الرجل فرصة لإتمام كلامه، وأردف^(١) يقول: وهو فوق ذلك كله سيد كريم الشمائل، موطاً الأكناف، سخي اليد.

فما عرف أهل المدينة أحداً أوفر منه جوداً لصديق وابن صديق.. ولا أزهّد منه في متاع الدنيا، ولا أرغب منه بما عند الله.

فقال "فروخ": ولكنك لم تذكر لي اسمه.

فقال الرجل: إنه ربيعة الرأي.

فقال "فروخ": ربيعة الرأي!!

نعم، إن اسمه ربيعة..

لكن علماء المدينة وشيوخها دعوه ربيعة الرأي لأنهم كانوا إذا لم يجدوا لقضية نصاً في كتاب الله أو حديث رسول الله ﷺ لجؤوا إليه.. فبجتهد في الأمر.. ويقيس مالم يرد فيه نص على ما ورد فيه نص.. ويأتيهم بالحكم فيما أشكل عليهم على وجه تركن^(٢) إليه النفوس وتطمئن له القلوب.

فقال "فروخ" في لهفة: ولكنك لم تتسبه لي.

فقال الرجل: إنه "ربيعة بن فروخ" المكنى بأبي عبد الرحمن.

لقد ولد بعد أن غادر أبوه المدينة مجاهداً في سبيل الله.. فتولت أمه تربيته

(٢) تركز إليه: تركز إليه وتطمئن.

(١) أردف: أتبع.

وتنشئته.. ولقد سمعت الناس قبيل الصلاة يقولون: إن أباه عاد الليلة الماضية.

عند ذلك تحدرت من عيني "قروح" دمعتان كبيرتان لم يعرف لهما الرجل سبباً.. ومضى يحث الخطى نحو بيته.

فلما رأته أم ربيعة والدموع تملأ عينيه قالت: ما بك يا أبا ربيعة؟
فقال: ما بي إلا الخير.

لقد رأيت ولدنا ربيعة في مقام من العلم والشرف والمجد ما رأيت له لأحد من قبل.

فاغتنمت أم ربيعة الفرصة وقالت: أيما أحب إليك.. ثلاثون ألف دينار أم هذا الذي بلغه ولدك من العلم والشرف؟

فقال: بل - والله - هذا أحب إليّ، وأثر عندي من مال الدنيا كله.

فقالت: لقد أنفقت ما تركته عندي عليه.. فهل طابت نفسك بما فعلت؟!.

فقال: نعم...

وجزيت عنى وعنه وعن المسلمين خير الجزاء.

روي ربيعة عن أنس بن مالك وكثير من التابعين كان إماماً حافظاً فقيهاً مجتهداً بصيراً بالرأى ولذلك يقال له ربيعة الرأى، وقال يحيى بن سعيد: ما رأيت أحداً أفطن من ربيعة، وقال سوار بن عبد الله القاضي ما رأيت أحداً أعلم من ربيعة بالرأى، قلت: ولا الحسن وابن سيرين؟ قال: ولا الحسن وابن سيرين وكان من الأجواد وهو الذى نفقه به مالك بن أنس الإمام. توفى سنة ١٣٦هـ .

* * *

مسلمة بن مخلد - رضى الله عنه -

ولد مسلمة قبل الهجرة بسنوات، قال يوماً على المنبر: أسلمت وأنا ابن أربع سنوات، وتوفى رسول الله ﷺ، وأنا ابن أربع عشرة سنة. أى: إنه أسلم عام الهجرة، وهو ما يعنى أن قومه دخلوا فى الإسلام حول هذا التاريخ.

روى أحاديث عن رسول الله ﷺ، منها قوله عليه السلام: "من ستر مسلماً فى الدنيا ستره الله عز وجل فى الدنيا والآخرة، ومن نجى مكروباً، فك الله عز وجل عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن كان فى حاجة أخيه، كان الله فى حاجته".^(١)

وكان مسلمة ورعاً، تقياً، حافظاً للقرآن، يطيل العبادة.

قال مجاهد^(٢): كنت أرى أنى أحفظ الناس حتى صليت خلف مسلمة بن مخلد الصبيح، فقرأ سورة البقرة، فما ترك ألفاً ولا واوا. (وفى رواية: فما أخطأ فيها ألفاً ولا واوا).^(٣)

شارك مسلمة فى فتح مصر، فكان على المدد الذى بعثه الخليفة الفاروق لعمر، وقال له: إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف منهم رجل مقام ألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة ابن مخلد. كانت سن مسلمة آنذاك حوالى خمس وعشرين سنة، وكان الخليفة عمر قد جعله على صدقات قبيلة فزارة قبل أن يخرج إلى مصر مجاهداً.

وفى الفتح كان له الباع الطويل، إذ كان ممن تسلق السلم والصور مع الزبير، حتى فتح الله لهم حصن بابليون، وبه فتح أغلب مصر، وكان من المقربين للقائد عمرو بن العاص، يعتمد عليه ويستشير، مع فارق السن الكبير بينهما.^(٤)

فعندما حاصر المسلمون الإسكندرية، وطال الحصار، قال عمرو لمسلمة: أشر على فى قتال هؤلاء فقال مسلمة: أرى أن تنتظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول الله ﷺ، فتعقد له على الناس، فيكون هو الذى يباشر القتال، ويكفيكه.

(٢) مجاهد التميمي، من التابعين، وأحد القراء الكبار.

(١) رواه أحمد فى مسند الغيبة ١٧٤/٥.

(٣) خطط المقرئ ٨٤/٢.

(٤) كانت سن مسلمة حوالى الخامسة والعشرين، أما عمرو فكان قد تخطى الستين بكثير.

وعاش مسلمة مع عمرو في مصر، وقد عينه مشرفاً على الطواحين والغذاء، حتى عزل الخليفة عثمان عمراً، وخرج عمرو إلى فلسطين، فلم يمكث مسلمة في مصر بعد ذلك، وإنما خرج إلى المدينة وعاش فيها، حتى بدأت الفتنة الكبرى بين علي ومعاوية، فرحل إلى الشام قبل أن يستتب الأمر لمعاوية، ثم كان معه في صفين، وأراد معاوية مجازاته فأمره على مصر والمغرب معاً.

وكان مسلمة مغرمًا بالغزو لنشر الإسلام، وهو الذي زين لمعاوية غزو القسطنطينية، فبعث معاوية جيشاً كثيفاً، فيه كثير من الصحابة كابن عباس وابن عمر وابن عمرو وابن الزبير وأبي أيوب الأنصاري، وعلى الجيش يزيد ابن معاوية، ومات أبو أيوب خلال هذه المحاولة، فدفنه يزيد تحت أسوار القسطنطينية - حسب وصيته.

وقد سير مسلمة الجيوش من مصر في ولايته برأً وبحراً إلى بلاد المغرب، وإلى الجزر التي في البحر الأبيض (جزر الروم)، وهو الذي أكمل فتح جزيرة رودس عام ٥٢ للهجرة، بقيادة الصحابي جنادة الأزدي.

وقد أثار فتح رودس الروم، فجاءوا بجيش لغزو مصر من ناحية الساحل عند بحيرة البرلس، وذلك عام ٥٣ للهجرة، ولكن مسلمة كان لهم بالمرصاد، فردهم وهزمهم شر هزيمة في معركة استشهد فيها الصحابي عائذ بن ثعلبة البلوي، ووردان مولى عمرو بن العاص وغيرهما..

على أن مسلمة لم يقتصر همه على الفتح فحسب، بل اهتم بالإصلاحات الداخلية، ومنها تعليم الناس الدين الجديد، فبنى المساجد الصغيرة في كل مكان من مصر، في القرى والكفور، ثم اتجه إلى المسجد الجامع في القسطنطينية محاولاً إصلاح ما أفسدته الأيام والظروف، فعمل خطة في عام ٥٣ للهجرة لترميم المسجد وتوسيعه وتجديده، دون أن يقترب من البناء القديم الذي بناه عمرو بن العاص، ثم بيضه وفرشه بالحصر بعد أن كان مقروشاً بالحصباء، ثم بنى في كل ركن من أركانه الأربعة صومعة، أي: غرفة صغيرة، وهي إضافة تميز بها آنذاك أول مساجد الإسلام في إفريقيا.

ومسلمة هو أول من بنى المآذن^(١) في المساجد، فقد أمر ببناء منارة في كل مسجد، وكتب عليها اسمه، ثم سن سنة لطيفة نكرها على مبارك، قال: أمر مسلمة مؤذني الجامع - جامع عمرو - أن يؤذنوا الفجر إذا مضى نصف الليل، فإذا فرغوا من آذانهم أذن كل مؤذن في الفسطاط في وقت واحد، فكان لأذانهم دوى شديد.^(٢)

وكان المتبع عند الفجر ضرب ناقوس لإيقاظ الناس.

تقول د. سعاد ماهر: وأمر ألا يضرب في المسجد بناقوس عند الفجر، كما كان يفعل أولاً، وبذلك يعتبر مسلمة بن مخلد أول من جعل المآذن في المساجد الإسلامية.^(٣)

ولم يهمل مسلمة القبط، إنما قدم لهم مآثر ما زالوا يذكرونها له، فقد ترك لهم حرية بناء الكنائس الجديدة، مع التصريح بتجديد وترميم القديم منها.

ومات معاوية بن أبي سفيان أول خلفاء بني أمية عام ٦٠ للهجرة، وتولى ابنه يزيد الخلافة، فأقر مسلمة على ولاية مصر والمغرب.

وقد عاش مسلمة بن مخلد حياة حافلة بالأعمال الجليلة في إمارته لمصر والمغرب، حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى في رجب عام ٦٢ للهجرة، وهو الأرحح، وقيل في ذي الحجة (الموافق أبريل عام ٦٨٢ للميلاد) ودفن في الإسكندرية^(٤)، رضى الله عنه.

* * *

(١) ذكر المعري أن معاوية بن أبي سفيان هو الذي أشار على واليه بابتداء منار المسجد الذي في الفسطاط.

(٢) الخطط التوفيقية ١٥/٤. (٣) مساجد مصر وأولياؤها ٣٧/٢.

(٤) قالت د. سعاد ماهر: (عن ابن زولاق وابن الزيات): مات مسلمة بن مخلد بمصر - الفسطاط - وهو الأصح، وقبره بمصر بخط مذبح الجمل، ومذبح الجمل بمصر القديمة الآن، ويعرف الشارع الذي به ضريح مسلمة باسم شارع مسلمة ابن مخلد، أما الآن فقد تغير اسم الشارع الموجود به الضريح، وأصبح سوقاً للباعة المتجولة، متفرع من الشارع المؤدى إلى جامع عمرو بن العاص، والضريح عبارة عن زاوية صغيرة بداخلها غرفة مربعة تقوم عليها قبة صغيرة (مساجد مصر ٣٧/١).

سعيد بن يزيد - رضى الله عنه -

هو: سعيد بن يزيد بن علقمة الأزدي، جاء إلى مصر ودخلها في سنة ٦٢ للهجرة.

بعد وفاة مسلمة بن مخلد، حيث عينه الخليفة يزيد بن معاوية والياً عليها، وكان سعيد صغير السن، رغم قول بعض الرواة بصحبته، واستبعد كثير منهم ذلك، مع أنه روى كثيراً من أحاديث رسول الله ﷺ، منها قوله: عن رجل من الصحابة قال: يا رسول الله أوصني. قال: "أوصيك أن تستحيى من الله كما تستحيى رجلاً صالحاً من قومك".

وصل سعيد إلى مصر، وشاهده كبراء الناس وفضلاؤهم، فاستصغروه، فقالوا: يغفر الله لأمرير المؤمنين، أما كان فينا مائة شاب كلهم مثلك، يولى علينا أحدهم؟ وبالغوا في إزدراءه والبعد عنه.

قال ابن تغرى بردى: ولم يزل أهل مصر من الشنآن له والإعراض عنه والتكبر عليه، حتى توفى يزيد بن معاوية^(١)، ودعا عبد الله بن الزبير الناس لبيعته، وقامت أهل مصر بدعوته، وسار منهم جماعة كثيرة إليه، فبعث عبد الله بن الزبير عبد الرحمن بن جحدم أميراً على مصر، واعتزل سعيد، فكانت ولايته سنتين إلا شهراً، وقيل سنتين وأشهرًا.^(٢)

ولو استعرضنا حال مصر خلال السنتين اللتين تولى فيهما سعيد، لوجدنا أن حال البلاد لم يكن في استقرار، وإنما كانت الحروب تحيط بالبلاد شرقاً وغرباً، فمن جهة الشرق خرج عبد الله بن الزبير، وطالت الحروب بينه وبين بنى أمية، وفي الغرب خرج كسيلة البربري الذي ارتد بعد إسلامه، وهجم على عساكر المسلمين، وعليهم عقبة بن نافع، واستولى على أمر إفريقية، ولم يستطع سعيد أن يرد هذه الهجمات البربرية على بلاد المغرب.

أى: إن الحروب والاضطرابات لم تترك فرصة للوالى سعيد بن يزيد أن يتفرغ لمصر وإصلاحاتها الداخلية وشؤونها الدينية، فكل ما أثر عنه حبه للعلم، ورواية حديث رسول الله ﷺ.

(٢) النجوم الزاهرة ١ / ١٥٨.

(١) توفى يزيد في ربيع أول عام ٦٤ للهجرة.

غير أن قصر مدته لم يسمح بظهور تصدعات في السلطة الداخلية، حتى كانت خلافة عبد الله بن الزبير.

* * *

رفيع بن مهران - رضى الله عنه -

أبو العالية

ولد رفيع بن مهران في بلاد "فارس"، وعلى أرضها نشأ وترعرع، ولما شرع المسلمون بغزو بلاد "الفرس" ليخرجوا أهلها من الظلمات إلى النور..

كان رفيع هذا أحد الشبان الأرقاء الذين وقعوا في أيدي المسلمين الحانية، وآلوا إلى رحابهم الخيرة البانية.

ثم ما لبث أن وقف هو ومن معه على سمو الإسلام.. ووازنوا بينه وبين ما كانوا عليه من عبادة الأوثان.. فطفقوا يدخلون في دين الله أفواجا.. ثم أقبلوا على كتاب الله.. وجعلوا يتملون من حديث رسول الله.

سمع من عمر وابن مسعود وعلى وعائشة.

ولقد انتهى أمر رفيع بن مهران إلى امرأة من بنى "تميم".

وكانت هذه المرأة سيدة عاقلة وقوراً.. ممثلة تقى وإيماناً.. فكان يخدمها بعض النهار، ويرتاح في بعضه الآخر.

فأتقن القراءة والكتابة في أوقات فراغه، وتلقى خلالها طرفاً من علوم الدين، دون أن ينال ذلك شيئاً من حقوقها عليه.

وفي ذات يوم من أيام الجمع توضع رفيع، فأحسن الوضوء ثم استأذن سيده بالانصراف.

فقالت: إلى أين يا رفيع؟

فقال: ابتغى المسجد.

فقالت: أي المساجد تريد؟

فقال: المسجد الجامع. (١)

(١) الجامع: المسجد الذي تقام فيه صلاة الجمعة.

فقلت: هيا بنا.

ثم مضيا معاً، ودخلا المسجد مع الداخلين، وهو لا يعلم ما تريد. فما إن امتلأ الجامع، وارتقى الإمام المنبر حتى أمسكت بيد رفيع، وقالت:

اشهدوا يا معشر المسلمين أني أعتقت غلامي هذا رغبة في ثواب الله.. وطمعاً بعفوه ورضاه.. وأنه ليس لأحد عليه من سبيل إلا سبيل المعروف.

ثم نظرت إليه وقالت:

اللهم إنى أدخره عندك ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.. ولما قضيت الصلاة، انطلق رفيع إلى سبيله، وانطلقت هي الأخرى إلى سبيلها أيضاً.

دأب رفيع بن مهران منذ ذلك اليوم على التردد إلى المدينة المنورة. فحظى بقاء الصديق رضوان الله عليه، وذلك قبيل وفاته بقليل.

كما سعد بالاجتماع إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وقرأ عليه القرآن، وصلى خلفه.

وكما أكب رفيع - المكنى بأبي العالية - على كتاب الله، فقد تعلق بحديث رسول الله.. فجعل يسمع روايته من التابعين الذين كان يلقاهم في "البصرة". لكنه ما لبث أن طمحت نفسه لما هو أثبت^(١) من ذلك.

فأخذ يمضى إلى المدينة حيناً بعد حين، ليسمعه من أفواه صحابة الرسول ﷺ أنفسهم، حتى لا يكون بينه وبين النبي ﷺ إلا شخص واحد هو الصحابي.

فأخذ عن عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وأبي أيوب الأنصاري، وأبي هريرة، وعبد الله بن عباس، وغيرهم وغيرهم..

ولم يقتصر أبو العالية على رواة الحديث في المدينة المنورة.. وإنما كان ينشد حديث الرسول ﷺ في كل مكان.

فإذا وصف له رجل بالعلم، ضرب إليه مهما كان بعيد الدار.

(١) أثبت: أشد ثبوتاً وأقوى صحة.

فإذا وصل إليه بادر فصلى خلفه.. فإذا وجده لا يتقن صلاته أحسن الإتيان..
ولا يوفيهما حقها أكمل التوفية، أعرض عنه وقال في نفسه:
إن الذي يتهاون في صلاته يكون أشد تهاوناً في غيرها... ثم يحمل عصاه،
ويعود من حيث جاء..

ولقد بلغ أبو العالية منزلة في العلم فاق بها جميع أقرانه.. من ذلك أن أحد
أصحابه قال: رأيت أبا العالية يتوضأ، والماء يقطر من وجهه ويديه.
والطهارة تتألق^(١) على كل عضو من أعضائه... فحييته وقلت: إن الله يحب
التوايين، ويحب المتطهرين.
فقال يا أخى:

ليس المتطهرون الذين يتطهرون بالماء من الدرن^(٢)... وإنما هم الذين
يتطهرون بالتقوى من الذنوب.
فتأملت ما قاله، وأدركت أنه أصاب وأخطأت، وقلت: جزاك الله خيراً، وزادك
علماً وفهماً.

ولقد دأب أبو العالية على حض الناس على طلب العلم، وجعل يرسم لهم سبل
الوصول إليه، فيقول:

روضوا^(٣) أنفسكم على تلقى العلم، وأكثروا من السؤال عنه.

واعلموا أن العلم لا يخفض جناحيه لمستح، أو متكبر.

فالمستحى لا يسأل لحياته.. والمتكبر لا يسأل لكبريائه.

وكان يحض طلابه على تعلم القرآن، ورعايته، والاستمسك بما جاء فيه،
والإعراض عما ينقله المتقولون^(٤)... فيقول: تعلموا القرآن... فإذا تعلمتموه، فلا
ترغبوا عنه... وعليكم بالصراط المستقيم فإنه الإسلام... وإياكم وهذه الأهواء^(٥)،
فإنها توقع بينكم العداوة والبغضاء.

(١) تتألق: تلمع، وتبرق. (٢) الدرن: الوسخ. (٣) روضوا: ذلوا وطوعوا.

(٤) ينقله المتقولون: يتدعه المبتدعون.

(٥) الأهواء: البدع وما تميل إليه الأكار مما لا يوافق ما جاء في كتاب الله، وحديث رسول الله ﷺ.

ولا تحيدوا عن الأمر الذي كان عليه صحابة رسول الله ﷺ قبل أن يتفرقوا... فنقلوا ذلك إلى الحسن البصرى فقال: لقد نصحكم أبو العالية - والله - وصدقكم.

كما كان يرسم لطلاب العلم الطريق الأمثل لحفظ القرآن، فيقول: تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات، فإنه أيسر على أذهانكم.. وأقوى على أفهامكم.. فإن جبريل عليه السلام كان ينزل به على النبي خمس آيات، خمس آيات.

ولم يكن أبو العالية معلماً فحسب، وإنما كان موجهاً أيضاً... ذلك أنه كان يملأ عقول طلابه بالمعرفة النافعة... ويغذى أفئدتهم بالموعظة الحسنة... ويجمع بين الأمرين في كثير من الأحيان.

من ذلك قوله لهم:

إن الله قضى على نفسه: أن من آمن به هداه... ومصداق ذلك قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

وأن من توكل عليه كفاه... ومصداق ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(١) [الطلاق: ٣].

وأن من أقرضه^(٢) جازاه... ومصداق ذلك قوله عز من قائل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقرضُ اللَّهُ قرضًا حسنًا فيضدفعه لهم أضعافًا كثيرة﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وأن من دعاه أجابه... ومصداق ذلك قوله علت كلمته: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وكان يقول لتلاميذه:

اعملوا بالطاعة، وأقبلوا على المطيعين لطاعتهم.. واجتنبوا المعصية، وعادوا العصاة لمعصيتهم.. ثم كلوا أمر العصاة إلى الله، فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم.

وإذا سمعتم الرجل يرفع من شأن نفسه فيقول:

(٢) أقرضه: تصدق على الناس طمعاً برياضه.

(١) حسبه: معطيه وكفايه.

إبني أحب في الله، وأكره في الله... وأفضل كذا مرضاة الله، وأعرض عن كذا خوفاً من الله... فلا تعتدوا^(١) به.

ولم يكن أبو العالية عالماً عاملاً فحسب، ولا واعظاً مرشداً فقط.

وإنما كان مجاهداً أيضاً... فكان يقضى قدراً من وقته في ميادين الجهاد مع المجاهدين... أو مرابطاً على ثغور الأعداء مع المرابطين.

ولقد ظل أبو العالية طوال حياته أسوان^(٢) أسفاً لأنه لم يحظ بلقاء الرسول صلوات الله وسلامه عليه..

وكان يحاول أن يعرض عن ذلك بالتقرب من كرام الصحابة الذين توثقت صلنتهم بمحمد رسول الله ﷺ.

فكان يؤثرهم^(٣) ويحبهم، وكانوا يؤثرونه ويفضلونه.

ومن آيات ذلك أن أنسا^(٤) - خادم رسول الله ﷺ - أهدى له تفاحة كانت في يده. فأخذها منه، وجعل يقبلها ويقول:

تفاحة مستها يد مست يد رسول الله... تفاحة مستها يد حظيت بمس يد رسول الله.

ومن ذلك أيضاً أنه دخل ذات مرة على عبد الله بن عباس، وكان يومئذ يتولى إمارة "البصرة" من قبل علي بن أبي طالب.

فرحب به عبد الله بن عباس أجمل الترحيب، ورفع على سريرته، وأجلسه عن يمينه.

وكان في المجلس طائفة من سادة قریش، فتغامزوا^(٥) به، وتهامسوا بينهم... وقال بعضهم لبعض:

أرأيتم كيف رفع ابن عباس هذا العبد على سريرته؟!.

وقد أدرك ابن عباس ما يتغامزون به، فالتفت إليهم وقال:

(١) فلا تعتدوا به: فلا تلتفتوا إلى ما يقول. (٢) أسوان: حزينا.

(٣) يؤثرهم: يفضلهم على نفسه.

(٤) أنس بن مالك: كتاب "صور من حياة الصحابة" د. عبد الرحمن رأفت الباشا.

(٥) فتغامزوا: جعل بعضهم يغمز لبعض بعينه.

إن العلم يزيد الشريف شرفاً، ويرفع قدر أهله بين الناس، ويجلس الممالئك على الأسرة.

وتوفي رفيع بن مهران سنة ٩٠هـ ويبلغ من تقاه وترقيبه لليوم الآخر، واستعداده للقاء ربه، أنه أعد لنفسه كفناً.

وأنه كان يلبس كفته كل شهر مرة ثم يرده إلى مكانه... ولقد أوصى سبع عشرة مرة، وهو صحيح سليم... وكان يحدد لكل وصية أجلاً، فإذا جاء أجلها نظر فيها.

فإما أن يعدلها... وإما أن يبديلها... وإما أن يمضيها... وفي شهر شوال سنة ثلاث وتسعين للهجرة... مضى أبو العالية إلى لقاء ربه، طاهر الذيل... نقى النفس... واتقاً برحمة ربه... متشوقاً إلى لقاء نبيه.

* * *

المقداد بن عمرو بن ثعلبة الكندي - رضى الله عنه -

تبناه الأسود بن عبد يغوث، فكان يقال: المقداد بن الأسود، حتى نزل قوله تعالى: (ادعوهم لأبائهم) فدعى المقداد بن عمرو.

أسلم قديماً، وتزوج ابنة عم الرسول ﷺ: ضباعة بنت الزبير، وسبب هذه الزيجة أنه طلب الزواج من ابنة عبد الرحمن بن عوف، فغضب عبد الرحمن وأغلظ له، فشكا ذلك للنبي ﷺ، فقال: أنا أزوجك، وزوجه ضباعة. (١)

شهد المقداد بدرأ، وكان الفارس الوحيد بها، ثم شهد بقية المشاهد مع رسول الله ﷺ، استعمله رسول الله ﷺ على سرية، ولما رجع، قال له ﷺ: كيف رأيت الإمارة أبا معبد؟ قال: خرجت يا رسول الله، وما أرى فضلاً لى على أحد من القوم، فما رجعت إلا وكانهم عبيد لى. قال: كذلك الإمارة يا أبا معبد، إلا من وقاه الله شرها. قال: والذي بعثك بالحق، لا أعمل على عمل أبدأ. (٢)

روى عن رسول الله ﷺ أحاديث عن مواقف مشرفة منها ما رواه أبو أيوب

(٢) فتوح مصر: ١٠١.

(١) الإصابة: ٢٠٣/٦.

الأنصاري - قبل بدر، قال: قال لنا رسول الله ﷺ، ونحن بالمدينة - بعد أن أخبر بعير أبي سفيان مقبلة - : هل لكم أن نخرج، فتلقى هذه العير لعل الله يغمناها؟ قلنا: نعم.

فخرجنا، فلما سرنا يوماً أو يومين، قال لنا: ما ترون في القوم؟ فإنهم قد أخبروا بخروجكم؟ قلنا: لا، والله يا رسول الله مالنا بطاقة بقتال العدو، ولكننا أردنا العير. قال: ما ترون في قتال العدو؟ قلنا: لا طاقة لنا بقتالهم. وهنا وقف المقداد بن عمرو، فقال: يا رسول الله امض لما أمرت به فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَتِيلُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق نبيا لو سرت بنا إلى برك الغماد (١) لجالدنا معك من دونه، حتى تبلغه. فقال له ﷺ خيراً، ودعا له.

وتقول رواية ابن عبد الحكم: فقال أبو أيوب: فتمنينا معشر الأنصار لو أننا قلنا كما قال المقداد، أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم. (٢)

وشارك المقداد في فتح الشام ومصر والمغرب، ثم عاد إلى مصر، قال ابن عبد الحكم: غزا عبد الله بن سعد المغرب مع المقداد بإفريقية، فلما رجعوا، قال عبد الله للمقداد في دار بناها: كيف ترى بنيان هذه الدار؟ فقال له: إن كان من مال الله فقد أسرفت، وإن كان من مالك فقد أفسدت. فقال عبد الله بن سعد: لولا أن يقول قائل أفسد مرتين، لهدمتها. (٣)

وترك المقداد مصر، وعاش في المدينة حتى توفي عام ٣٣ للهجرة، عن سبعين عاماً، وصلى عليه الخليفة عثمان بن عفان، وكان رضي الله عنه قد أوصى للحسن والحسين بستة وثلاثين ألفاً، ولأمهات المؤمنين لكل واحدة بسبعة آلاف درهم. (٤)

* * *

(١) برك الغماد: موضع وراء مكة بخمس ليال، قبل اليمن. (معجم البلدان).

(٢) سير أعلام النبلاء ١/٣٨٩.

(٣) فتوح مصر ١١٠.

(٤) فتوح مصر ٢٦٨.

سهل بن مالك - رضى الله عنه -

هو سهل بن مالك الخزرجى الساعدى، وكنيته أبو العباس وقيل أبو يحيى، وكان اسمه حزنا فسماه رسول الله ﷺ سهلا.

وقد رأى رسول الله ﷺ وسمع منه وشهد قضاؤه فى المتلاعنتين بالتفريق بينهما.

روى عن رسول الله ﷺ مائة وثمانين حديثا، وقد روى عن أبى بن كعب وعاصم بن عدى ومروان بن الحكم وغيرهم.

وروى عنه أبو هريرة وسعيد بن المسيب والزهرى وأبو حازم وابن عباس بن سهل.

وقد عاش وطال عمره حتى أدرك الحجاج بن يوسف الثقفى ولم يسلم من أذاه وأراد ألا يسمع الناس منه لاتهامه بعدم مناصرة عثمان ؓ.

وكان له يوم توفى رسول الله ﷺ خمس عشرة سنة وقد نزل المدينة وتوفى بها سنة ثمانى وثمانين عن ست وتسعين سنة وقيل سنة إحدى وتسعين عن مائة سنة، وهو آخر من بقى بالمدينة من أصحاب النبى ﷺ.

وقد روى أنه قال: لو مت لم تسمعوا من أحد يقول قال رسول الله ﷺ.

* * *

أبوسلمة - رضى الله عنه -

أبو سلمة هو ابن عبد الرحمن بن عوف وهو من كبار التابعين وهو عبد الله الأصغر.

وأمه تماضر بنت الأصبغ بن عمرو بن ثعلبة بن الحارث وهى أول كلبية ينكحها قرشى.

وأبو سلمة كانت كنيته.

لما ولى سعيد بن العاص بن أمية المدينة لمعاوية بن أبى سفيان فى المرة

الأولى جعل أبا سلمة قاضياً على المدينة فلما عزل سعيد وولى مروان المدينة عزل أبا سلمة عن القضاء وولى القضاء وشرطه أخوه مصعب بن عبد الرحمن. روى أبو سلمة عن أبيه وعن زيد بن ثابت وأبي قتادة وجابر بن عبد الله وأبي هريرة وابن عمرو وابن عباس وعائشة وأم سلمة وكان فقيهاً ثقة كثير الحديث توفى بالمدينة سنة أربع وتسعين في خلافة الوليد بن عبد الملك وهو ابن اثنتين وسبعين سنة.

* * *

بسر بن أبي أريطة العامري القرشي - رضى الله عنه -

بعد فتح مصر اختط بها وعاش فيها، حتى كانت بواخر الفتنة، فأنحاز للخليفة عثمان، ثم كان مع معاوية، وعندما استتب الأمر له، ولى بسراً الحجاز واليمن. كان بسراً شجاعاً، فكان إذا ركب البحر قال: أنت بحر وأنا بسراً، علىّ وعليك الطاعة لله، سيروا على بركة الله.

روى أحاديث عن رسول الله ﷺ، منها ما ذكره أبو داود، قال: كان بسراً فى البحر، فأتى بسارقي، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تقطع الأيدي فى السفر.

وحديث آخر رواه ابن حبان، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها.

عاش بسراً حتى خلافة عبد الملك بن مروان، قال ابن سعد: كان بسراً عثمانياً، وصحب معاوية، وبقي إلى خلافة عبد الملك بن مروان. (١)

* * *

(١) الطبقات ٤٠٩/٧. وكانت خلافة عبد الملك من عام ٦٥ إلى عام ٨٦ للهجرة.

محمد بن مسلم - رضى الله عنه -

هو محمد بن مسلم وشهرته ابن شهاب الزهري ولد سنة ٥٠ وحدث عن عبد الله بن عمر وأنس بن مالك وسعيد بن المسيب وغيرهم.

قال الليث بن سعد: ما رأيت عالماً قط أجمع من الزهري يحدث في الترغيب فنقول لا يحسن غيره، وإن حدث عن العرب والأنساب قلت لا يحسن إلا هذا، وإن حدث عن القرآن والسنة فكذلك.

وقال عمر بن عبد العزيز لم يبق أحد أعلم بسنة نبيه من الزهري.

وقال مالك: بقي ابن شهاب وماله في الدنيا نظير.

وقال الليث: كان من أسخى الناس وكان يؤدب ولد هشام بن عبد الملك ويجالسه، وقد سأله هشام أن يملى على بعض ولده شيئاً، فأملى عليه أربعمائة حديث، ثم لقيه بعد شهر أو نحوه فقال للزهري: إن ذلك الكتاب قد ضاع فدعا بكتاب فأملأها عليه، ثم قابل ذلك بالكتاب الأول فما غادر حرفاً واحداً.

وقال مالك قدم ابن شهاب المدينة فأخذ بيد ربيعة ودخلا إلى بيت الديوان، فلما خرجا وقت العصر خرج ابن شهاب وهو يقول: ما ظننت بالمدينة مثل ربيعة، وخرج ربيعة يقول ما ظننت أن أحداً بلغ من العلم ما بلغ ابن شهاب.

وقال ابن شهاب: قال لى القاسم بن محمد أراك تحرص على العلم أفلا أدلك على وعائه؟ قلت: بلى. قال: عليك ببنت عبد الرحمن فإنها كانت فى حجر عائشة فأتيتها فوجدتها بحراً لا ينضب. توفى سنة ١٢٤ هـ.

يزيد بن أبى حبيب مولى الأزدي - رضى الله عنه -

هو يزيد بن أبى حبيب واسمه سويد الأزدي أبو رجاء المصرى، فقيه مصر وشيخها ومفتيها، لقي عبد الله بن الحارث، وهو سودانى الأصل، أبوه من أهل دنقلة ونشأ بمصر.

روى عن بعض الصحابة وأكثر روايته عن التابعين أمثال سالم ونافع وعكرمة وعطاء، وروى عنه ابن لهيعة والليث وآخرين.

قال أبو سعيد بن يونس كان مفتى أهل مصر وكان حليماً عاقلاً وهو أول من أظهر العلم بمصر والمسائل والحلال والحرام وقبل ذلك كانوا يتحدثون في الترغيب والملاحم والفتن.

قال الليث بن سعد: يزيد عالمنا وسيدنا.

وقيل إن يزيد أحد ثلاثة جعل عمر بن عبد العزيز الفتيا إليهم بمصر .

وكانت البيعة إذا جاءت لخليفة فأول من يبايع عبید الله بن أبي جعفر ويزيد ابن حبيب.

قال ابن لهيعة: مرض يزيد فعاده الحوثره بن سهيل أمير مصر قال يا أبا رجاء ما تقول في الصلاة في الثوب وفيه دم البراغيث فحول وجهه ولم يكلمه فقام فنظر إليه يزيد وقال: تقتل كل يوم خلقاً وتسالني عن دم البراغيث.

وقال سعيد بن عفير: أرسل زبان بن عبد العزيز إلى يزيد أنتنى لأسألك عن شيء من العلم، فأرسل إليه بل أنت فأتنى فإن مجيبك إلى زين لك ومجيئى إليك شين على، توفي سنة ١٢٨ هـ.

جنادة بن أبي أمية الأزدي الزهراني - رضى الله عنه -

شهد فتح مصر، وولى البحر لمعاوية بن أبي سفيان. قال ابن الأثير: ولى البحر من زمن عثمان إلى أيام يزيد إلا ما كان أيام الفتنة.

روى أحاديث عن رسول الله ﷺ منها قوله: تذاكرنا الهجرة، فقال بعضنا: انقطع. وقال بعضنا: لم تنقطع. فأرسلنا^(١) رجلاً منا إلى النبي ﷺ، فقال: لا تنقطع الهجرة ما كان الجهاد.

والمقصود هنا: الهجرة بالمعنى العام، وهي هجرة المنهى عنه إلى المأمور به، والجهاد مأمور به، فالتزامه هجرة إلى الله عز وجل، أما الهجرة بالمعنى الخاص

(١) في رواية الإصابة: فانطلقت إلى النبي ﷺ...

(إلى المدينة) فتلك هي التي انقطعت بقول رسول الله ﷺ: لا هجرة بعد الفتح، ولكن إيمان وجهاد، وإذا استغفرتم فأنفروا ويوضع بإزاء هذا قول رسول الله ﷺ: المهاجر من هجر ما نهى الله عنه.

وهناك حديث آخر رواه الصحابي جنادة، قال: دخلنا مع نفر على النبي ﷺ يوم الجمعة، فقرب إلينا طعاماً، فقال: كلوا. فقلنا: إنا صيام. فقال: أصمتم أمس؟ قلنا: لا. قال: أفصائمون أنتم غداً؟ قلنا: لا. قال: فأفطروا. (١)

وزاد ابن سعد في الرواية، قال: ثم خرج النبي ﷺ إلى الجمعة، فلما جلس على المنبر دعا بإناء فيه ماء، فشرب، والناس ينظرون، ليعلمهم أنه لا يصوم يوم الجمعة. (٢)

خارجة بن حذافة بن غانم العدوي القرشي - رضى الله عنه -

أسلم يوم الفتح، وهو من الفرسان، عده عمر بن الخطاب بألف رجل في المدد الذي بعثه لعمر بن العاص، ولشجاعته كان عطاؤه مميّزاً، بعث الخليفة إلى عمرو قائلاً: أنظر من قبلك ممن بايع تحت الشجرة، فأتم لهم العطاء مائتين، وأتمها لنفسك لإمرتك، وأتمها لخارجة بن حذافة لشجاعته. (٣)

بعد أن فتحت مصر اختط خارجة بالفسطاط بيتاً، وولاه عمرو على الشرطة، حتى كان يوم ١٧ من رمضان عام ٤٠ للهجرة، أصيب عمرو بمغص، فاستخلف خارجة على الصلاة.

قال ابن عبد الحكم: كان عمرو قد أصابه في بطنه شيء، فتخلف في منزله، وكان خارجة يغطي الناس، فضربه الحروري، وهو يظن أنه عمرو. (٤)

وكان ثلاثة من الخوارج من جيش على بن أبي طالب قد اتفقوا على قتل كل من على بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص في يوم واحد هو ١٧ من رمضان، والخوارج الثلاثة هم: عبد الرحمن بن ملجم الحميري قاتل

(٢) الطبقات ٥٠٣/٧.

(١) فتوح مصر ٣٠٦.

(٤) فتوح مصر ٢٦٠.

(٣) فتوح مصر ١٤٥.

على فى الكوفة، وكان ممن شهد الفتح، وسكن مصر لفترة، والحجاج بن عبد الله التميمى الذى حاول قتل معاوية، ولكنه فشل فى قتله فى دمشق، والثالث عمرو ابن بكر التميمى قاتل خارجة بن حذافة فى الفسطاط، الذى شاء الله أن يقتل بدلاً من عمرو، حتى إن القاتل بعد علمه بمن قتل، صرخ، وقال: والله ما أردت إلا عمراً. ويقول عمرو عندما يبلغه هذا القول: ولكن أراد الله خارجة.

روى خارجة بعض أحاديث رسول الله ﷺ منها قوله: خرج علينا رسول الله ﷺ، فقال: إن الله قد أمركم بصلاة هى خير لكم من حمر النعم، الوتر جعله لكم فيما بين صلاة العشاء إلى أن يطلع الفجر. (١)

السائب بن خلاد بن سويد الخزرجى الأنصارى - رضى الله عنه -

عرف بكنيته (أبو سهلة)، وبعد أن شارك فى فتح مصر، رجع إلى المدينة، وعاش فيها، ولكنه جاء مصر مرة أخرى لمقابلة عقبة بن عامر الجهنى، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يذكر فى الستر شيئاً؟ فقال عقبة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من ستر مسلماً ستره الله. فقال: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم. فراح، ولم يقدم من المدينة إلا لذلك.

وفى رواية: أنه قدم على مسلمة بن مخلد وهو الأمير، وقال له: أرسل إلى عقبة بن عامر، فذهب إليه فى قرية، فقال له: أتذكر مجلساً كنت أنا وأنت فيه مع رسول الله ﷺ ليس معنا أحد غيرنا؟ قال: نعم. قال: كيف سمعته؟ قال: سمعته يقول: من اطلع على أخيه، على عورة، ثم سترها، جعلها الله له يوم القيامة حجاباً من النار.

وفى رواية: كأنما أحيا موءودة من قبرها. قال: كنت أعرف ذلك، ولكنى أوهمت الحديث، فكرهت أن أحدث به على ما كان. ثم ركب على صدر راحلته، ثم رجع. (٢)

وقد روى السائب أحاديث عن رسول الله ﷺ منها قوله: أتانى جبريل عليه

(٢) أسد الغابة ٢/٢٥٤.

(١) فتوح مصر ٢٦٠.

السلام، فأمرنى أن أمر أصحابى أن يرفعوا أصواتهم بالإهلال والتلبية.
وقوله ﷺ: من أخاف أهل المدينة، أخافه الله، وعليه لعنة الله والملائكة
والناس أجمعين. (١)

وقد عمر السائب، ومات عام ٧١ للهجرة، وقيل: عام ٩١ للهجرة.

أبرهة بن شرحبيل - رضى الله عنه -

هو أبرهة بن شرحبيل بن أبرهة بن الصباح الحميرى وقد على رسول الله ﷺ
مبايعاً، ففرش له رسول الله ﷺ رداءه، وروى عن رسول الله ﷺ أحاديث.
بعد نهاية الفتح، وبناء الفسطاط، بعثه عمرو ليكون مرابطاً فى الفرما، ومعه
سرية من المسلمين.

قال ابن الأثير: وبعث عمرو إلى الفرما أبرهة بن الصباح ، فنزل بها ،
وبعث عوف بن مالك إلى الإسكندرية، فنزل بها. (٢) وأبرهة ممن اختطوا
بالجيزة، وعاش فيها بعد ذلك.

أبو بكر بن هشام المخزومى - رضى الله عنه -

هو أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى، ولد فى خلافة
عمر، وروى عن أبيه وعن غيره من الصحابة.

وروى عنه الزهرى وغيره من صغار التابعين.

وكان ثقة حجة فقيهاً إماماً كثير الرواية سخياً وكان صالحاً عابداً متألهاً كان
يقال له راهب قریش توفى بالمدينة سنة ٤٩ هـ.

عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود - رضى الله عنه -

أخذ عن عائشة وأبي هريرة وابن عباس وغيرهم وكان مع إمامته فى الفقه والحديث شاعراً محسناً، وهو مؤدب عمر بن عبد العزيز. قال الزهرى: كان عبيد الله من بحور العلم. مات سنة ٩٨ هـ .

سليمان بن يسار مولى أم المؤمنين ميمونة - رضى الله عنه -

روى عنها وعن عائشة وأبي هريرة وابن عباس وزيد بن ثابت وغيرهم ، قال الحسن بن محمد ابن الحنفية: وهو أفهم عندنا من سعيد بن المسيب، وقيل كان المستفتى يأتى سعيد بن المسيب فيقول عليك بسليمان بن يسار وقال مالك كان من علماء الناس. مات سنة ١٠٧ هـ.

نافع مولى عبد الله بن عمر - رضى الله عنه -

روى عن مولاه وعائشة وأبي هريرة وغيرهم، وبعثه عمر بن عبد العزيز إلى مصر ليعلم أهلها السنة، وكان فى حياة سالم بن عبد الله بن عمر لا يفتى. خدم عبد الله بن عمر ثلاثين سنة وهو ديلمى الأصل توفى سنة ١١٧ هـ .

أبو جعفر بن محمد المعروف بالباقر - رضى الله عنه -

هو أبو جعفر بن محمد بن على بن الحسين وشهرته كانت الباقر وهو الإمام الخامس من أئمة الشيعة الإمامية.

روى عن أبيه وجابر وابن عمر وغيرهم، كان سيد بنى هاشم فى زمانه توفى سنة ١١٤ هـ.

أبو الزناد عبد الله بن ذكوان فقيه المدينة - رضى الله عنه -

سمع أنس بن مالك وكثيراً من التابعين، قال الليث بن سعد: رأيت خلفه ثلاثمائة تابع بين طالب فقه وطالب شعر وصنوف، قال: ثم لم يلبث أن بقى وحده وأقبلوا على ربيعة الرأى.

وقال أبو حنيفة: رأيت ربيعة وأبا الزناد، وأبو الزناد أفقه الرجلين وكان سفيان يسمى أبا الزناد أمير المؤمنين فى الحديث. توفى سنة ١٣١هـ.

يحيى بن سعيد الأنصارى - رضى الله عنه -

حدث عن أنس بن مالك وعن كثير من التابعين، قال يحيى القطان: هو مقدم على الزهرى، اختلف على الزهرى ولم يختلف عليه.

وقال أحمد بن حنبل: يحيى بن سعيد أثبت الناس، وقال وهيب: قدمت من المدينة فلم ألق بها أحداً إلا وأنت تعرف وتكر غير يحيى بن سعيد ومالك. توفى سنة ١٤٦هـ.

مجاهد بن جبر مولى بنى مخزوم - رضى الله عنه -

سمع سعداً وعائشة وأبا هريرة وابن عباس ولزمه مدة وقرأ عليه القرآن وكان أحد أوعية العلم.

قال مجاهد: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أفقه عند كل آية أسأله فيم نزلت وكيف كانت، وقال قتادة أعلم من بقى بالتفسير مجاهد، وقال: ربما أخذ لى ابن عمر بالركاب. توفى سنة ١٠٣هـ.

عكرمة مولى ابن عباس - رضى الله عنه -

روى عن ابن عباس وعن عائشة وأبى هريرة وغيرهم، وتفقه بابن عباس

وقيل لسعيد بن جبير: أتعلم أحداً أعلم منك؟ قال: نعم، عكرمة.
وعن الشعبي قال: ما بقى أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة، وقد تكلم فيه بأنه
يرى رأى الخوارج ومن ثم لم يخرج له مالك الإمام ولا مسلم بن الحجاج مات
سنة ١٠٧هـ.

أبو الزبير مولى حكيم بن حزام - رضى الله عنه -

هو أبو الزبير محمد بن مسلم بن تدرس مولى حكيم بن حزام، حدث عن
ابن عباس وابن عمر وسعيد بن جبير وغيرهم. قال يعلى بن عطاء: حدثنا
أبو الزبير، وكان أكمل الناس عقلاً وأحفظهم.
وقال عطاء: كنا نكون عند جابر فيحدثنا فإذا خرجنا تذاكرنا فكان أبو الزبير
أحفظنا للحديث، توفي سنة ١٢٧هـ.

علقمة بن قيس النخعي فقيه العراق - رضى الله عنه -

ولد في حياة رسول الله ﷺ وسمع من عمر وعثمان وابن مسعود وعلي،
وتفقه بابن مسعود وكان أنبل أصحابه.
روى عن ابن مسعود أنه قال: ما أقرأ شيئاً وما أعلم شيئاً إلا علقمة يقرؤه
أو يعلمه.
قال قابوس بن أبي ظبيان، قلت لأبي: لأي شيء كنت تدع الصحابة وتأتى
علقمة؟ قال: أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ وهم يسألون علقمة
ويستفتونه.

قال الذهبي: كان فقيهاً إماماً بارعاً طيب الصوت بالقرآن ثباتاً فيما ينقل صاحب
خير وورع كان يشبه ابن مسعود في هديه ودله وسمته وفضله، مات
سنة ٦٢هـ.

مسروق بن الأجدع الهمداني الفقيه أحد الأعلام - رضی الله عنه -

وهو ابن أخت عمرو بن معد يكرب أخذ عن عمر وعلى وابن مسعود. قال الشعبي: ما علمت أحداً كان أطلب للعلم منه وكان ألم بالفتوى من شريح وكان شريح يستشير به وكان مسروق لا يحتاج إلى شريح. توفي سنة ٦٣هـ.

إبراهيم بن يزيد النخعي فقيه العراق - رضی الله عنه -

روى عن علقمة ومسروق والأسود وغيرهم وهو شيخ حماد بن أبي سلمة الفقيه كان من العلماء ذوي الإخلاص وكان يتوقى الشهرة .

وقال عبد الملك بن أبي سليمان: سمعت سعيد بن جبیر يقول تستفتونى وفيكم إبراهيم النخعي، وكان لا يتكلم فى العلم إلا أن يسأل. مات سنة ٩٥هـ.

الحسن بن أبى الحسن يسار مولى زيد بن ثابت - رضی الله عنه -

نشأ بالمدينة وحفظ القرآن فى خلافة عثمان ثم كبر، ولازم الجهاد ولازم العلم والعمل وكان أحد الشجعان الموصوفين، حدث عن كثير من الصحابة.

قال ابن سعد: كان عالماً رفيعاً ثقة حجة مأموناً ناسكاً كبير العلم فصيحاً جميلاً وسيماً وهو أحد الصادعين بالحق الذين لا يخشون فى الله لومة لائم مات سنة ١١٠هـ.

جابر بن زيد صاحب ابن عباس - رضی الله عنه -

هو جابر بن زيد صاحب ابن عباس وكنيته: أبو الشعثاء، روى عن ابن عباس أنه قال: لو أن أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علماً بما فى كتاب الله، وروى عنه أنه قال: تسألونى عن شىء، وفيكم جابر بن زيد؟ قال عمرو بن دينار: ما رأيت أحداً أعلم بالفتيا من جابر بن زيد. وروى أن عمر

لقيه في الطواف فقال له يا جابر إنك من فقهاء البصرة وإنك تستفتي فلا تفتين إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية فإن لم تفعل هلكت وأهلك. مات سنة ٩٣هـ.

قتادة بن دعامة الدوسي - رضى الله عنه -

حدث عن أنس وعن سعيد بن المسيب وغيرهما قال ابن سيرين: قتادة أحفظ الناس. هو قتادة بن دعامة الدوسي كان فقيها عالما قوى الحفظ، ويقال إنه كان ضريراً.

وقال قتادة: ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً.

قال أحمد بن حنبل: قتادة أعلم بالتفسير وباختلاف العلماء ووصفه بالحفظ والفقہ وأطنب في ذكره، وقال: قل أن تجد من يتقدمه.

وقال قتادة: ما أفقت بشيء من رأي منذ عشرين سنة. ومع حفظه كان رأساً في العربية واللغة وأيام العرب والنسب. توفي سنة ١١٨هـ.

مكحول بن أبي مسلم - رضى الله عنه -

هو الإمام مكحول بن أبي مسلم، ولد بمصر وكان مولى امرأة من هذيل وأصله من كابل.

وروى عن ثوبان وأبي إمامة ووائلة وأنس بن مالك وغيرهم وروى أيضاً عن الزهري وأبي حنيفة.

وأيضاً روى عن صغار الصحابة وكان يدلس على الكبار - يعنى يروى عنهم دون أن يبين الوساطة بينه وبينهم - .

رحل كثيراً في طلب العلم فأدرك منه حظاً وافراً.

قال الزهري: العلماء ثلاثة فذكر مكحولاً.

وقال أبو حاتم: ما أعلم بالشام أفقه من مكحول. توفي سنة ١١٣هـ.

أبو الخير مرثد بن عبد الله اليزنى - رضى الله عنه -

هو أبو الخير مرثد بن عبد الله اليزنى ، كان مفتى أهل مصر فى زمانه .
تفقه على عقبه بن عامر الجهنى وعلى عبد الله بن عمر .
وروى عن أبى أيوب الأنصارى وأبى بصرة الغفارى وعقبه بن عامر
الجهنى، توفى سنة ٩٠هـ.

وهب بن منبه الصنعانى - رضى الله عنه -

عالم أهل اليمن، روى عن ابن عمر وابن عباس وجابر وغيرهم، وعنده من
علم أهل الكتاب شىء كثير فإنه صرف عنايته إلى ذلك لدرجة المبالغة.
قال العجلي: كان ثقة تابعياً على قضاء، توفى سنة ١١٤هـ.

يحيى بن أبى كثير مولى طيى - رضى الله عنه -

روى عن أنس بن مالك وعن كثير من التابعين، قال شعبة: هو أحسن حديثاً
من الزهرى، وقال أحمد: إذا خالفه الزهرى فالقول قول يحيى، توفى
سنة ١٢٩هـ.

جميل بن بصرة بن أبى بصرة الغفارى - رضى الله عنه -

أسلم هو وأبوه وجده، وروى الثلاثة عن رسول الله ﷺ، وكانوا فى الجيش
الفتاح لمصر.

قال ابن سعد: أبو بصرة الغفارى صحب النبى ﷺ، ونزل مصر، ومات بها،
ودفن فى المقطم فى مقبرة أهل مصر، وبصرة صحب النبى ﷺ، وروى عنه،
وابنه جميل ابن بصرة بن أبى بصرة صحب النبى ﷺ أيضاً مع أبيه وجده. (١)

سفيان بن هاني بن جبير الجيشاني - رضى الله عنه -

حليف المعافر، روى عن رسول الله ﷺ، وبعد فتح مصر سكن الإسكندرية، ومات فيها زمن عبد العزيز بن مروان. (١)

قال ابن حجر: شهد فتح مصر، وله رواية عن علي، وكان قد وفد عليه، وله صحبة. قال ابن يونس: مات في الإسكندرية.

سفيان بن وهب الخولاني - أو أيمن - رضى الله عنه -

بعد أن وفد على النبي ﷺ حضر حجة الوداع، وخرج بعد ذلك في الجيش الفاتح لمصر، ثم شهد فتح إفريقية. (٢)

تولى إمرة المغرب، وسكن بها إلى أن مات عام ٨٢ للهجرة.

روى سفيان عن رسول الله ﷺ أحاديث منها قوله ﷺ: "روحة أو غدوة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، وإن المؤمن، عرضه وماله ونفسه حرام كما حرم الله هذا اليوم".

وروى ابن عبد الحكم حديثاً آخر عن سفيان، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا تأتي المائة وعلى ظهرها أحد باق". فحمل سفيان إلى عبد العزيز بن مروان وهو شيخ كبير، فسأله عبد العزيز عن الحديث، فحدثه، فقال عبد العزيز: فلعله، يعني ١٠٠ يبقى أحد ممن كان معه إلى رأس المائة. (٣)

شيث بن سعد بن مالك البلوي - رضى الله عنه -

قال ابن يونس: له صحبة، وشهد فتح مصر. (٤) وقيل: شهد بيعة العقبة، وفتح مصر.

(٢) الإصابة ٣/٢٦٠.

(٤) أسد الغابة ٤/١٦٠.

(١) تولى مصر من عام ٦٥ إلى عام ٨٦ للهجرة.

(٣) فتوح مصر ٣٠٧.

روى أحاديث عن رسول الله ﷺ منها قوله ﷺ: إن العبد ليخرج إليه يوم القيامة كتاب فيه حسناته. (١)

إياس بن أبي البكير - رضى الله عنه -

هو إياس بن أبي البكير بن عبد يالليل بن ثابت الليثي من كنانة، من السابقين إلى الإسلام.

فقد أسلم ورسول الله ﷺ في دار الأرقم، وهاجر إلى المدينة وإخوته الثلاثة: عاقل (٢) وخالد (٣) وعامر (٤).

قال ابن سعد: خرج عاقل وخالد وعامر وإياس بنو أبي البكير من مكة إلى المدينة للهجرة.. فلم يبق في دورهم أحد، حتى غلقت أبوابهم. (٥)

شهد إياس مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، وفي فتح مصر كان ضمن الجيش الذي جاءها، وكان من أهل الراية الذين اختطوا لهم بيوتاً في القسطنطينية.

روى حديث رسول الله ﷺ على منبر جامع عمرو، حتى توفي عام ٣٤ هـ.

عبد الرحمن بن غانم الأشعري - رضى الله عنه -

روى عن عمر ومعاذ وغيرهما بعثه عمر بن الخطاب إلى الشام ليفقه الناس وهو الذي تفقه عليه التابعون بالشام. كان كبير القدر صادقاً. توفي سنة ٧٨ هـ.

(٢) استشهد عاقل يوم بدر في رمضان عام ٢ للهجرة.

(٤) استشهد عامر باليمامة عام ١٢ للهجرة.

(١) الإصابة ٤/٤٧٧.

(٣) استشهد خالد يوم الرجيع عام ٤ للهجرة.

(٥) الطبقات ٣/٣٨٨.